



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

الأدب
العالمى
للناشئين

رجال عظام ونساء عظيمات

ليزلى ليفيت



مهرجان القراءة للجميع

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه

الاسكندرية

رجال عظام.. ونساء عظيمات

رجال عظام .. ونساء عظيمات

ليزلى ليفيت

ترجمة: مختار السويفى



مهرجان القراءة للجميع ٩٧
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأدب العالمى للناشئين)

رجال عظام ونساء عظيمات

ليزلى ليفيت

ت: مختار السويفى

لوحة الغلاف :
للفنان: جمال قطب
تصميم الغلاف
الإشراف الفني:
للفنان محمود الهندى
المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاث الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وان مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

المهاتما غاندي

عند غروب شمس يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٤٨ . كان هناك رجل عجوز ضئيل الجسم يعبر حـــوش منزله آخذا طريقه الى المعبد لأداء الصلاة · وفجأة ، سمع دوى أربع طلقات نارية سقط الرجل على أثرهـا على الأرض ·

وفى تلك الليلة . قال صديقه العظيم « بانديت نهرو » وهو ينعيه من خلال الاذاعة الى شعب الهند :

« لقد انطفأ النور من حياتنا ·· وحل الظلام فى كل مكان ·· » ·

وقصة حياة هذا الرجل العجوز الضئيل الجسم، هى قصة حياة رجل من أعاظم الرجـــال ·· المهاتما غاندى ·· وهى قصة يجب ان يعرفها الجميع ··



المهاتما غاندى .

١ ـ فى بيته

فى ٢ اكتوبر سنة ١٨٦٩ ، ولـــد موهانداس غاندى فى احدى مدن غرب الهند · و « موهانداس » هو اسمه الأول · اما لقب « المهاتما » فهو لقب منح اليه فيما بعد ، ومعناه « الروح الكبير » ·

وعلى مدى سنوات طويلة ، تبوأت أسرة غاندى عديدا من الوظائف الكبيرة الهامة فى الحكومة · وكان أبوه يشغل منصبا رئيسيا فى احدى ولايات الهند ·

وكان رجلا مهذبا وشجاعا وعرف بحسن أدائه لعمله وسمعته الطيبة ·

وكان الطفل موهانداس يحب والديه حبا جما ، وكانت أمه سيدة متدينة محبة للصلاة ، وكانتلا تقوم باعداد أية وجبة طعام للأسرة ، الا بعد أداء صلوات خاصة ·

وفي احدى المرات شعرت الأم بأن واجبها الديني يفرض عليها أن تصوم وتضرب عن تناول الطعام حتى ترى الشمس · وكان الوقت آنئذ في فصل سقوط الامطار ، واختفت الشمس وراء السحب منذ مدة طويلة · وقلق الأطفال لحال أمهم ، فأخذوا يقضون الساعات الطوال متطلعين الى السماء لعل السحب تنفرج قليلا فتظهر الشمس ، فيسرعون الى أمهم لاخبارها بأن الشمس قد ظهرت فتوقف صيامها وتبدأ في تناول الطعام ·

٢ ـ فى المدرسة

وقد ألف المهاتما غاندى كتابا عن بعض ذكرياته، أخبرنا فيه عن اشـــياء كثيرة من ذكريات طفولتـــه وسنواته الأولى · وقال غاندى فى بعض صفحات هذا الكتاب انه لم يكن من السهل عليه أن يعقد صداقات مع قرنائه من زملاء المدرسة · وكان أصدقاؤه الوحيدون هم كتبه ودروسه · وكان يجرى منطلقا الى بيته فور انتهاء الدروس خوفا من أن يكلمه أحد أو يسخر منه أحد ·

كان طفلا معروفا بالصدق والأمانة · ولكن حدث في أحد الأيام ما كدر صفوه · وكان الأمر يتعلق « بالألعاب المدرسية » · حيث يفرض عليه الاشتراك مع غيره من الأولاد على غير رغبة منه · كما كان يريد الانصراف من المدرسة فورا بعد انتهاء الدروس لكي يساعد أباه · ولذلك فقد كان غاندي لا يحب الاشتراك في هذه « الألعاب المدرسية » وكان يعتبرها مضيعة للوقت ·

وفي يوم ما بعد انتهاء الدروس في الفترة الصباحية ، طلبوا منه أن يعود الى المدرسة في الساعة الرابعة بعد الظهر للاشتراك في الألعاب المدرسية · وكان موهانداس لا يمتلك ساعة يعرف بها الوقت ، كما أخطأ في تقدير الوقت بسبب السماء الملبدة بالسحب والغيوم · فوصل الى المدرسة بعد انتهاء الألعاب وانصراف التلاميذ ·

وفي اليوم التالي أخذ موهانداس يبرر للناظر السبب في تأخره في الحضور الى المدرسة عصر

اليوم السابق . ولكن الناظر لم يصدقه . بل وقيل له انه يكذب ولا يذكر الحقيقة ولا بد أن يعاقب على ذلك !

كاذب .. ؟!

هل هذا معقول .. ؟!

ولكن كيف يستطيع أن يبرهن على أنه لم يذكر سوى حقيقة ما حدث فعلا .. ؟!

وفي هذه السن المبكرة ، أدرك غاندى أن رجل « الحقيقة » لابد أن يكون أيضا رجلا « حريصا » . وأن الاهمال قد يؤدى الى حمل الآخرين على تكوين فكرة خاطئة عن الرجل ، حتى لو كان صادقا بالفعل .

وقد غير غاندى فكرته عن الألعاب الرياضية فيما بعد . ولحسن الحظ فقد قرأ في أحد الكتب عن الفوائد الثمينة لرياضة « المشى » ، فبدأ منذ صباه في المشى لمسافات طويلة في الهواء الطلق . وظلت هذه الرياضة مفضلة لدى غاندى ، كما ظل يمارسها طوال حياته .

وذكر غاندى أيضا فى كتابه هذا أن خطـه كان رديئا ويقرأ بصعوبة ، وأنه لم يبذل اى جهد لتحسينه لأنه كان لا يرى أية أهمية لذلك • ولكنه عندما ذهب الى جنوب أفريقيا ، ورأى الخطوط الحسـنة الجميلة التى كان يكتبها المحامون والشبان هناك ، شعر بالخجل الشديد من رداءة خطه ، وأدرك أن الكتابة بخط ردىء تعتبر علامة ضعف فى الانسان • وبالرغم من ذلك فقد ذكر غاندى أنه عندما ادرك هذه الحقيقـة وبدأ فى تحسين خط كتابته ، كان الوقت قد فات •

٣ ـ الزواج

تزوج موهانداس وهو فى سن الثالثة عشرة · وكانت هذه السن المبكرة تعتبر أمرا طبيعيا ومناسبة للزواج فى الهند فى تلك الأيام · وكان أخوه الأكبر قد تزوج من قبل · وأصر الوالدان على تزويج ابنهمـا الثانى وابنهما الثالث « موهانداس » مع ابن عم لهما فى حفل زواج واحد · وكانت حفلات الزواج تتطلب الكثير من الأموال لشراء الهـدايا واقامة مآدب الطعام وشراء الملابس الجديدة · لذلك فقـد رأت الأسرة أن اقامة احتفال جماعى بتزويج الأبناء الثلاثة دفعة واحدة

يوفر الكثير وكانت عروس موهانداس فتاة صغيرة لم تذهب قط الى المدرسة · وكان هذا الزواج المبكر سببا فى صرفه عن تحصيل دروسه فى المدرسة الثانوية ، فرسب وأعاد السنة الدراسية · ولكنه استطاع بمزيد من الجهد فيما بعد أن يدرس علوم سنتين دراسيتين فى سنة دراسية واحدة ، وعوض بذلك العام الذى فقده ·

٤ ــ أخطاء الشباب

وكان من ضمن زملائه بالمدرسة ، شاب صغير لا يتمتع بأخلاق طيبة . فصادقه موهانداس وهو يعلم هذه الحقيقة وبالرغم من نصائح زملائه الآخرين بالابتعاد عن هذا الشاب . وكان موهانداس يشعر بأنه قادر على تغيير وتحسين أخلاق صديقه .

وكانت أسرة غاندى تؤمن بعقيدة دينية تحرم ازهاق روح أى مخلوق من المخلوقات . ولذلك فقد كانت تحرم أكل اللحم تحريما قاطعا . ولكن الصديق أخذ يزين له فوائد أكل اللحوم ويقول له :

اننا ضعفاء ٠٠ واستطاع الانجليز أن يتحكموا فينا لأنهم يأكلون اللحوم ٠٠ وأنا أتمتع بجسم قوى وأستطيع الجرى لمسافات طويلة لأنى آكل اللحم ٠٠ وأنت أيضا يجب أن تأكل اللحم ٠٠ ولتأكل الآن قطعة منه لترى بنفسك القوة التى ستمنحها لك ٠٠ !!

وبدأ موهانداس يصدق بعضا من أقاويل صديقه فقد كان هو نفسه ذا جسم ضعيف ولا يستطيع القفز أو الجرى ، كما كان يخاف الظلام لدرجة أنه كان يحتفظ بالمصباح مشتعلا طول الليل فى غرفة نومه ٠ ولهذا فقد بدأ موهانداس يقتنع برغبته فى أكل اللحم برغم أنه كان يكره أن يخدع والديه ٠

وفى يوم ما تسلل الصديقان الى مكان منعزل هادىء قرب شاطىء النهر ٠ وهناك تذوق موهانداس طعم اللحم لأول مرة فى حياته ٠ وأكل قطعة صغيرة من لحم الماعز ٠ وشعر بالغثيان ٠ ومع ذلك فقد استمر صديقه فى اعطائه قطعة من اللحم بين حين وآخر وعلى مدى عام كامل ٠ الى أن توقف تماما عن فعل ذلك

معلمنا أن أسوأ ما فى هذه الدنيا أن يخدع أباه وأمه بمثل هذه الطريقة . وبطبيعة الحال فلم يعرف والداه شيئا عن هذا الموضوع ، ولكن منذ تلك اللحظة ، . توقف غاندى عن أكل اللحوم طوال بقية حياته .

وفى أثناء تلك الأيام أيضا بدأ موهانداس هو وصديق له يدخنان السجائر ، ليس عن رغبة أو كيف أو مزاج ، وانما ليقلدا الكبار عندما ينفثون الدخان من أفواههم وأنوفهم . ولما كان موهانداس وصديقه لا يملكان نقودا كافية لشراء السجائر ، كما أن بقايا السجائر التى كانا يجمعانها لم تعد كافية ، لذلك فقد اضطرا لسرقة قليل من النقود من خدم المنزل . وعندئذ توقف موهانداس عن التدخين بصفة نهائية باعتباره عملا غير نظيف ومؤلم .

وكانت مثل هذه الأعمال تسبب الكثير من القلق والاضطراب للفتى موهانداس ، الذى كان يريد أن يبنى حياته على الصدق والحقيقة . فقد كان يعرف أن خداع والديه ومخالفة الأوامر والنواهى التى تنص عليها

عقيدته الدينية ، تعتبر من الأعمال الشائنة التى توصم بعدم الاخلاص وعدم الأمانة .

وكان هناك حادث آخر يتعلق بأحـــد أخطائه الكبرى . فعندما كان فى الخامسة عشرة من عمـره ، سرق قطعة صغيرة من الذهب من أخية الأكبر . وقد تألم موهانداس كثيرا بعـد ارتكاب هذه الجريمة . وأخذ يؤنب نفسه بشدة على قيامه بهذه الفعلة الشنعاء. وأخيرا كتب رسالة شرح فيها جريمته ، وطلب توقيـع العقاب المناسب عليه ، ووعد فى الوقت نفسه بعـــدم العودة الى مثل هذا فى المستقبل .

وتقدم وهو يشعر بخجل شديد من نفسه وأعطى الرسالة لأبيه الذى كان راقدا على فراش المرض ووقف ينتظر .. وقرأ الأب الرسالة بعناية شديدة ، فطفرت الدموع من عينيه . وببطء شديد أخذ الأب يمـزق الرسالة .

لقد توقع موهانداس أن يسمع كلمات غاضبة، ويتلقى عقابا صارما ، ولكن مشاعر الحب التى عمر بها قلب الأب ، ظلت راسخة فى ذهن الفتى الصغير الذى لم ينس هذا الفضل لأبيه طوال حياته ٠

٥ ـ فى انجلترا

وفى سن الثامنة عشرة ، التحق غاندى باحدى الكليات . ولكنه لم يستمر الى بقية العام الدراسى ، لأنه لم يتجاوب مع الدروس التى كانت تلقى فى تلك الكلية . لذلك فقد نصحوه بأن يتـــوجه الى انجلترا ليدرس القانون ويصبح محاميا . ولم يكن ذلك بالشىء اليسير الهين .

كان من الصعب عليه أن يترك الهند ليذهـب الى بلاد أجنبية يضطر فيها الى أن يأكل ويشرب مـــع الأجانب . وكان ذلك أيضا ضد تعاليم عقيدته الدينية

وقد وقف بعض رجال الدين ضد ذهابه ، ولكن بالرغم من ذلك كله ، أبحر موهانداس الى انجلترا وهو فى سن الثامنة عشرة ، تاركا وراءه زوجة وابنا صغيرا ٠

وعلى ظهر السفينة ، ارتدى موهانداس لأول مرة فى حياته ثيابا أجنبية أهداها اليه أصدقاؤه ٠ واحتفظ بثيابه الهندية البيضاء لحين الوصول الى انجلترا ٠ وعندما وصلت السفينة الى لندن ، اكتشف موهانداس أنه الوحيد الذى يرتدى ملابس بيضاء خفيفة ، مع أن الوقت كان فى نهاية الخريف وبداية برد الشتاء ٠ ولم يستطع موهانداس أن يغير ملابسه لأن حقائبه أصبحت معدة للنزول من على ظهر السفينة ٠

وفى الأيام الأولى لاقامته فى لندن ، صادفته مشكلتان طريفتان ٠ وكانت المشكلة الاولى منهما تتعلق ببحثه عن الطعام المناسب ٠ فعلى عكس معظم الهنود الذين كانوا يعيشون فى انجلترا ، أصر غاندى على التمسك بعقيدته الدينية التى تحرم أكل اللحوم ٠ ولم يكن هذا بالأمر السهل فى بلد كانجلترا ٠٠

وكم كان سروره عندما اكتشف مطعما للنباتيين لا يقدم لزبائنه أى طعام يتضمن لحما من أى نوع كان. وعلم أن كثيرين من الانجليز نباتيون لا يأكلون اللحم لأسباب صحية . وقد سره كثيرا أن يرى العلم يؤيد تعاليم عقيدته الدينية فى تحريم أكل اللحوم .. ثم تعلم فيما بعد أن يشترى الخضراوات من السوق ويقوم بطبخها لنفسه فى حجرته .

أما المشكلة الثانية فتتعلق بأنه كان يرغب فى أن يلعب دور « الجنتلمان » الانجليزى . فهو وان كان لا يستطيع أن يأكل ما يأكله الجنتلمان ، الا أنه يستطيع أن يلبس مثل ملابسه ويتصرف مثل تصرفاته . فاشترى ملابس جديدة وقبعة عالية من الحرير ،وأرسل خطابا لأخيه الأكبر يطلب منه أن يرسل اليه سلسلة ذهبية للساعة . وأخذ ينفق جزءا كبيرا من وقته كل صباح أمام المرآة لكى يرتدى ملابسه ويسرح شعر رأسه الكثيف .

وبناء على نصيحة بعض الاصدقاء ، بدأ فى تعلم

الرقص الغربي ، وتلقى دروسا في اللغة الفرنسية ، كما بدأ في تعلم العزف على احدى الآلات الموسيقية ، وكيفية القاء الخطب · ولكن هذا كله لم يغنه شيئا ، وأخذت أمواله تتبخر بسرعة · وفي نهاية الشهور الثلاثة الأولى ، رأى أنه لم يستفد من وقته بطريقة جيدة ، فتوقف عن هذا كله ، وبدأ في دراسة القانون ·

وفي ذلك الوقت أيضا بدأت قراءاته الحرة في العقائد والأديان · وعندما طلب منه بعض الاصدقاء أن يساعدهم على فهم كتاب « الجيتا » وهو الكتاب المقدس في العقيدة الهندوسية ، وجد في ذلك سعادة غامرة، وازداد ايمانه بهذا الكتاب ، حتى أصبح يعتقد أنه الكتاب الوحيد الذي يتضمن أفضل طريقة لمعرفة الحقيقة ·

ثم بدأ في قراءة « الانجيل » · وقد سره كثيرا أن يدرك أن بعض تعاليم المسيح تشبه الى حد بعيد بعض تعاليم كتاب « الجيتا » ·

ومن خـــلال قراءته لكتـــاب المؤلف الانجليزى « كارليل » تمكن من معرفة الكثير عن محمد رسول الله وأعجب كثيرا بعظمته وشجاعته وباســـلوب الحياة البسيطة التى كان يحياها .

ومن نتيجة هذه القراءات والدراسات تبين له أن الحقيقة التى يحبها لا توجد كلها فى ديانة أو عقيـــدة واحدة .

٦ ـ العودة للهند

وبعد أربع سنوات متوالية من دراسة القانون ، اجتاز غاندى الامتحان النهائى وحصل على الشهادة فى سنة ١٨٩١ ٠ وقرر العودة الى الهند ٠

وبمجرد وصوله أخبره بعض أصدقائه بخبر موت أمه ٠ وكان لهذا الخبر وقع الصدمة الشديدة فى نفسه ٠ فحزن كثيرا مثلما حزن لموت أبيه قبـــل ذهـــابه الى انجلترا ٠

ولم تكن السنوات القليلة التالية لوصوله الى الهند سنوات سعيدة ٠ حيث وجد أن عمله كمحـــام عمل لا

يسره ، وأدرك أن هذه المهنة لا تناسبه ، وفى احدى المرات بينما كان فى المحكمة ، كاد يغمى عليه ، وعندما جاء دوره فى المرافعة لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة. ولذلك فلم يكن هناك مناص من التغيير .

وسنحت فرصة التغيير عندما طلب منه التوجه الى جنوب أفريقيا للتفاهم مع أحد أثرياء التجار الهنود الذى كان يحاول الحصول على مبلغ كبير من المال من أحد أفراد أسرة غاندى . وفى سن الرابعة والعشرين ، توجه غاندى الى « دربان » فى جنوب أفريقيا .

٧ ـ في جنوب أفريقيا

واكتشف غاندى بمجرد وصوله الى جنوب أفريقيا أن أحوال معظم الهنود الذين يعيشون هناك ليست على ما يرام ، ويعانون ظروفا سيئة وصعبة أظهرها التفرقة العنصرية بينهم وبين البيض • وقد عرف غاندى هذه الحقيقة المؤلمة عندما ذهب الى المحكمة ، وكان يلبس على رأسه عمامة هندية برغمانه كان يرتدى ملابس أجنبية• فأمره القاضي بأن يخلع تلك العمامة ، ورفض غاندى أن يخلع عمامته واضطر الى مغادرة المحكمة • وسرعـــان ما انتشرت حكاية هذه العمامة فى جميع انحاء جنـــوب أفريقيا •

وكان الهنود الذين تركوا أوطانهم بحثا عن فرص للعمل فى أفريقيا ، يعتبرون أدنى مرتبة من المستوطنين البيض ، وكانوا يسمون باسم « كولى » أي غير المهرة ·

وبعد أيام قليلة أوفده موكلـه التـاجر الهندى « عبد الله شيت » الى مدينة أخرى بجنوب أفريقيا لانهاء بعض الأعمال · فحجز تذكرة بالدرجة الأولى فى قطار السكك الحديدية المسافر الى تلك المدينة · وفى أثناء السفر ، استاء أحد الرجال البيض من وجود غانـدى بعربة الدرجة الأولى المخصصة للبيض وحدهم · فقـام الرجل الأبيض باستدعاء عامل القطار الـذى طلب من غاندى مغادرة العربة فورا · ولكن غاندى أجاب بأنه قد اشترى تذكرة بالدرجة الأولى ومن حقه أن يركب بعربة الدرجة الاولى بناء على ذلك · وعندئذ تدخل أحد رجال الشرطة وأجبره بالقوة على مغادرة القطار ·

وفى اليوم التالى حدث شيء أسوأ من ذلك · فعندما أراد أن يركب احدى عربات السفر التى تجرها الخيول ، رفض البيض ركوبه بداخل العربة وأجبروه على الجلوس بخارجها جوار السائق · ومع ذلك رفض حارس العربة

أن يجلس غاندى فى هذا المكان واعتدى عليه بالضرب .
وكاد أن يقضى عليه لولا تدخل بعض الركـاب البيض
الذين أوقفوا الحارس عند حده .

وعندما وصل غاندى الى المدينة توجه الى أحـــد
الفنادق ليحجز حجرة يقيم فيها ، الا أنه تلقى صدمــة
شديدة حين رفض موظفو الفندق اعطاءه الحجرة بــل
وقاموا بطرده من الفندق فورا . وهكذا توالت سلسلة
من الحوادث والاهانات التي جعلت غاندى مقتنعا تماما
بأن الهنود فى حاجة الى من يساعدهم على الحياة الكريمة
فى أفريقيا .

ولم يكن غاندى يرى فى نفسه القدرة أو الصلاحية
للقيام بهذا الدور ، لذلك فقد ارتضى لنفسه أن يعيش
كما يعيش أفقر فقراء الهنود فى جنوب أفريقيا . وكان
يســافر فى عربات الدرجة الثـالثة كلما اقتضى الأمر
الى أى مكان . ومع ذلك فقد كان يحس بالألم والمرارة
حين يرى الهنود من أهل وطنه وهم يعاملون مثل هذه
المعاملة المهينة . فحاول بقدر ما يستطيع أن يواجه هذا
الظلم ، وهذه المعاملة المتعالية التى لا تعرف العدل .

وبعد فترة من الوقت ، أدرك غاندى أن من الأفضل بالنسبة لموكله التاجر الهندى وبالنسبه لخصمه وهو تاجر هندى آخر ، أن يتفق الخصمان فيما بينهما ويصفيا مشاكلهما بطريقة ودية ودون اللجوء الى المحاكم . وبعد مجهود كبير استمر شهورا ، استطاع غاندى أن يوفق بين التاجرين وجعلهما يتفقان على تحديد المبلغ المطلوب دفعه ، ويتفقان أيضا على طريقة دفع هذا المبلغ .

وكان هذا النجاح سببا فى اقناع غاندى بأن معظم المشاكل التى تنشأ بين الناس ، يمكن لوسطاء الخير أن يحلوها بسلام وبطريقة ودية .

وفى خلال نفس السنة قابل غاندى مجموعة من الهنود المسيحيين الذين طلبوا منه اعتناق المسيحية مثلهم ، ومجموعة أخرى من الهنود المسلمين الذين كانوا يحثونه على اعتناق الاسلام . وكان غاندى قد قرأ كثيرا من الكتب التى تتعلق بكل من الانجيل والقرآن . ولكنه كان فى نفس الوقت يقرأ الكتب التى تتعلق بديانته الهندوسية ، وكان يجد فى هذه الكتب الأخيرة سعادة عميقة وسلاما تاما .

وفى نهاية تلك السنة . انتهى العمل مع موكلـه « عبد الله شيت » وقرر غاندى أن يعود الى الهند . وفى حفلة العشاء التى اقيمت لتوديعه فى مدينة دربان، ناقش المحتفلون به قانونا جديدا أصدرته سلطات جنوب أفريقيا لتقييد حرية الهنود وحرمانهم من بعض الحقوق. ونتيجة لهذا النقاش قرر المجتمعون أن يبقى غاندى فى جنوب أفريقيا ، ليعمل من أجل حقوق الهنود الذين يعيشون هناك .

وهكذا بدأت عشرون سنة من العمـــل الشـاق لصالح الهنود فى جنوب أفريقيا .

٨ ـ بداية كفاحه

وبعد انقضاء السنوات الثلاث الأولى ، عاد غاندى الى الهند لزيارة استمرت بضع شهور انتهت بأن عاد الى جنوب أفريقيا مرة أخرى مصطحبا معه زوجته وابنيه ٠

وفى أثناء تلك الزيارة حاول غاندى بكل الطرق أن يشرح للشعب الهندى مدى الاهانات والمعاملة السيئه التى يعانيها الهنود الذين يعيشون فى جنوب أفريقيا ٠ وألقى كثيرا من الخطب وكتب كثيرا من المقالات حول هذا الموضوع ٠ ولكن أخبار هـذه الخطب والمقـالات وصلت الى المستوطنين البيض فى اقليم ناتال بجنوب

أفريقيا قبل وصول غاندى الى هناك بمدة كافية ٠

وما أن وصل غاندى ونزل من السفينة التى أقلته، حتى تعرف عليه بعض المستوطنين البيض فأخذوا يصيحون : « غاندى ٠٠ غاندى !! » ٠ فتجمع على الفور جمهور كبير من هؤلاء المستوطنين وأخذوا يقذفونه بالحجارة والبيض وبدأوا يضربونه ضربا مبرحا ٠ وكادوا أن يقضوا عليه فعلا لولا شجاعة امرأة انجليزية هى فى نفس الوقت زوجة لرئيس الشرطة ٠ لقد كافحت هذه المرأة الشجاعة لحماية غاندى حتى وصل بعض رجال الشرطة وأدخلوه الى مبناهم ٠ ومع ذلك فقد استمر تظاهر المستوطنين البيض وانتظروا خروجه ٠ ولكن غاندى خرج من الباب الخلفى للمبنى متنكرا فى زى رجل شرطة من الهنود ، فى نفس الوقت الذى كان يحاول فيه رئيس الشرطة تهدئة المستوطنين المتجمعين امام البوابة الرئيسية للمبنى ٠

ومن المستحيل حصر جميع الحوادث التى وقعت خلال سنوات اقامة غاندى فى جنوب أفريقيا لمساعدة الهنود وتحسين أحوالهم وحث الحكومة على معاملتهم

بطريقة عادلة · لقد رفض أن يشغل وظيفة تدر عليه أموالا طائلة وذلك من أجل مساعدة الفقراء والبؤساء الذين ندر حياته من أجلهم ·

وكانت زوجته تساعده فى جميع أعماله ، ومؤمنة بجميع أهدافه ، وتشجعه على البذل والعطاء أكثر وأكثر ·

ومن خلال كفاحه فى جنوب أفريقيا ، اكتسب غاندى ايمانا لا حد له ببعض طرق الكفاح التى اتبعها فيما بعد ضد المستعمرين الانجليز فى وطنه الأم ·· لقد آمن غاندى بالقوة الروحية الكامنة فى الانسان ·· تلك القوة التى تمكنه من مواجهة الشر ومكافحة القوة ·· لكن ليس بالبغض ولا بالكراهية واستعمال العنف، وانما بالحب وبالهدوء ·· وبرفض اطاعة الأوامر والقوانين الجائرة ·

وكان على كل من يعتنق هذه المبادىء من أتباع غاندى ، أن يمتنع تماما عن العمل مع الحكومة ·· وأن يمتنع أيضا عن طاعة أى قانون ظالم ·· وعندئذ لن

تستطيع الحكومة أن تفعل شيئا ، أو ستصبح على الأقل محدودة القدرة على مواجهة مثل هذا الموقف ·

وقد تعرض غاندى للسجن فى مرات كثيرة ، ومع ذلك فقد ظل اتباعه ينفذون مبادئه وتعاليمه ·

وعندما ترك غاندى جنوب أفريقيا فى عام ١٩١٤، كانت أحوال الهنود الذين يعيشون هناك قد تحسنت كثيرا عما كانت عليه قبل حضور غاندى الى تلك البلاد ·

٩ ــ العمل من أجل فقراء الهند

وما أن وصل غاندى الى الهند فى بداية الحرب العالمية الأولى ، حتى وجد صدى طيبا لكفاحه فى جنوب أفريقيا ، فقد كان شعب الهند يتابع هــذا النضــــال باعجاب كبير ، واعترفوا به على الفور كقائد وزعيم ٠ وأطلقوا عليه لقب « المهاتما » ومعناه الروح الكبير ٠

واختار غاندى محل اقــــامته بالقرب من مدينــة « أحمد أبــاد » وأسس هنــــاك معتزلا دينيـــا سماه « الأشرام » ودعا شعب الهند للانضـــمام اليه بصرف النظر عن أجناسهم أو عقائدهم الدينية ٠ ولا يطلب منهم

سوى الالتزام والايمان بمبادىء معينة هى :

١ ـ أن يقولوا الصدق دائما ·

٢ ـ ألا يحاربوا أو يكرهوا الناس الآخرين ·

٣ ـ ألا يأكلوا الا القدر الضرورى من الطعام الذى يكفى للمحافظة على صحتهم ·

٤ ـ ألا يمتلكوا شيئا لا ضرورة له ·

وكانت طبقة « المنبوذين » تعتبر أحط الطبقات طبقا للعقيدة الهندوسية · ولم يكن مسموحا لهم الا بالعمل فى أحط الأعمال · ومع ذلك فقد سمح غاندى للمنبوذين أن ينضموا الى « الأشرام » مثلهم مثل غيرهم سواء بسواء ·

ولكن عندما كانت تنضم احدى عائلات المنبوذين الى جماعة غاندى ، كانت المشاكل تبدأ على الفور · فيظلوا منبوذين من بقية افراد الجماعة ، كما أن أثرياء الهندوس الذين كانوا يقدمون بعض الأموال لمساعدة الجماعة امتنعوا عن ارسال مساعداتهم حتى لا تصل الى

هؤلاء المنبوذين ۰فماذا فعل غاندى لمواجهة هذا الموقف ؟

قرر غاندى على الفور أن يضع خطة لنقل جميع أعضاء جماعته وهو على رأسهم الى الأحياء التى يعيش فيها المنبوذون ۰ وأن على أعضاء الجماعة أن يكسبوا عيشهم بأداء نفس الأعمال المنحطة التى فرضت على هؤلاء المنبوذين ۰

وفى أثناء قيام غاندى باعداد تلك الخطة جاءه أحد كبار التجار المسلمين ، واستأذنه فى أن يقبل بعض الأموال كمساعدة منه للجماعة ۰ وفى اليوم التالى أحضر هذا التاجر المسلم أموالا تكفى لمساعدة الجماعة عاما بأكمله ۰ وقال غاندى فى ذلك : « ان الله قد ساعدنا فى اللحظة الأخيرة ! » ۰

وكانت هذه أولى الخطوات ـ وتبعتها فيما بعد خطوات كثيرة ـ لتغيير وتحسين وضع المنبوذين فى الحياة الهندية ۰

ومنذ هذا الوقت وحتى آخر أيام حياته ، كان

المهاتما غاندى لا يرندى الا نوبا من القطن المحلى . غزل ونسج فى بيته ٠

وكان يؤمن ايمانا مطلقا بأن أهم هدف لحياته ، هو مساعدة الفقراء ، وتحسين أحوال الـــكادحين من الناس ، ومساعدة شعبه بكل ما يمكنه ويستطيعه ٠ ولكن بشرط واحد . هو عدم استعمال العنف ٠

وذات يوم ذهب ليرى الأحوال السيئة التى يعيش فيها مجموعة من فقراء الفلاحين الذين يعملون فى احدى المزارع ، فالتف حوله مئات ومئات من الناس ٠٠ جاءوا ليروا هذا الصديق الذى يريد مســـاعدتهم ٠٠ وجاء رجال الشرطة وأمروه بالانصراف ، ولكنه أعلن رفضـــه لتنفيذ الأمر ، فقبضوا عليه ٠ وفى المحكمة شرح للقضاة السبب فى رفضه لتنفيذ الأمر ، وطلب من المحكمة ان توقع عليه عقوبة عدم تنفيذ الأمر وعدم طاعة القانون ٠ ولكن المحكمة لم تستطع أن تفعل شيئا أمام هذا المنطق ، فأمرت باطلاق سراحه ٠

واعتبرت هذه المحاكمة أول خطوة لاتجاه جديـــد

ذاع وشاع وأصبح مألوفا فى كل أنحاء الهند ، وهو رفض الأوامر والقوانين الجائرة مع الاستعداد الهادىء لتحمل عقوبة هذا الرفض أو العصيان ٠

١٠ ـ مسيرة نحو البحر

وروويدا رويدا بدأ شعب الهند يدرك تعاليم غاندى التى تدعو الى مكافحة القوة بالحب ، بدلا من مكافحة القوة بالقوة · وفى سنة ١٩٣٠ وقعت حادثة مشهورة سميت باسم « مسيرة الملح » !

أصدرت الحكومة قانونا بمنع الناس من صناعة الملح من ماء البحر ، وذلك لاجبار الناس على شراء الملح من الحكومة ·

اعتبر غاندى هذا القانون ظالما وجائرا ويجب على الهنود أن يرفضوه · وأعلن للشعب أنه سيقود



غاندي .. أثناء المسيرة .

مسيرة من أتباعه متجها نحو البحر الذى يبعد نحو مائتى ميل · وهناك سيعلن رفضه لهذا القانون ويصنع بنفسه ملحا من ماء البحر ·

وعلى مدى ثلاثة أسابيع متصلة ، وعلى مسمع من جميع أنحاء العالم الذى كان يتتبع أنباء تلك المسيرة أولا بأول ، وبينما كانت الاضطرابات تشتعل فى معظم أنحاء الهند ، واصل المهاتما غاندى مسيرته بثبات وليس على جسمه الضئيل سوى الثوب القطنى الأبيض الذى غزل خيوطه ونسجها بيديه ·

وعلى طول الطريق كانت جماهير الهنود تخرج من قراها للانضمام الى تلك المسيرة ·· حتى وصلوا جميعا الى شاطىء البحر · وهناك صنع غاندى بنفسه حفنة من الملح رمزا لمخالفة القانون الجائر · وأعلن أن الله قد وهب البحر للناس ولا يمكن لحكومة من البشر أن تحول بين الناس وخير البحر !

وبطبيعة الحال فقد سجنته الحكومة لمخالفته لقانون الملح · ولكنه خرج من السجن بعد العقوبة ليواصل كفاحه من أجل شعب الهند ·

١١ ـ حكومة ذاتية لشعب الهند

وبدأ كفاح شعب الهند للحصول على الاستقلال وتكوين حكومة ذاتية من أبناء الشعب دون تدخل من المستعمرين الانجليز · وكتب غاندى العديد من المقالات ضد الحكومة البريطانية التى وقفت ضد استقلال الهند وحريتها · كما كتب المقالات وألقى الخطب تحث الهنود على أن يكونوا أهلا للحكومة الذاتية وأن يواصلوا كفاحهم بدون استخدام العنف حتى ولو استخدم المستعمرون العنف ضدهم · بل ووقف بحزم ضد أعمال العنف التى كانت ترتكبها بعض فئات الشعب ·

وأودع غاندي في السجن عدة مرات بسبب ما كان

يعلنه أو يكتبه أو يفعله • وعندما قام بعض أتبـاعه باستخدام العنف ضد الحكومة ، أعلن غاندى صيامه واضرابه عن الطعام حتى الموت اذا لم يتوقف هـذا العنف •

وهكذا أصبح أتباعه يزدادون كل يوم عددا وقوة• وكان الناس يتجمهرون بأعداد غفيرة لرؤيته وسـماع خطبه • كما أن أية مقالة كان يكتبها كانت تقرأ على الفور فى جميع أنحاء الهند • ووفد اليه زعماء الهنـد وقادة الشعب الهندى من كل الأرجاء ، بل ووفد اليه الزعماء المناضلون ضد الاستعمـار من مختلف شعوب العالم •

لقد كان الكفاح الذى قاده هذا الزعيم العظيم من أجل حصول بلاده على الاستقلال شاقا ومضنيا ولكنه تكلل فى النهاية بالنجاح •• وبعد كل هذه السنوات الطويلة من الأحزان والمآسى ، صـدر اعـلان استقلال الهند • وكان من المفروض أن يكون الرجل الذى قاد هذا الكفاح حتى النصر من أسعد السعداء • ولكن الحال كان على العكس •

كان غاندى يشعر بالألم والمرارة بسبب الخلافات والاضطرابات التى نشبت بين المسلمين والهندوس والتى كانت سببا فى تقسيم الهند الى دولتين : الهند للهندوس وباكستان للمسلمين ٠ وشعر غاندى بكل الالم والمرارة نتيجة لهذا التقسيم ٠

١٢ ـ عندما اقتربت النهاية

نشبت اضطرابات فظيعة في معظم أنحاء الهند · خصوصا في المناطق والولايات التى كان يعيش فيهـــا الهندوس والمسلمون جنبا الى جنب ·

شب القتال بين الطـائفتين · وقتل مئـات من الرجال والنساء والأطفال من الطرفين · وأصبح مئات الالوف من الناس بلا مأوى ويتعرضون لمختلف أنواع العذاب والعناء ·

وبينما كان هذا الصراع الرهيب على أشده فى مختلف مناطق الهند ، كانت المنطقة التى يعيش فيهـا

غاندى هادئة وتوقف فيها صراع المسلمين والهندوس تماما ، وذلك بعد أن أعلن غاندى صيامه واضرابه عن الطعام حتى يتوقف هذا الصراع · ونظرا لأن غاندى كان محبوبا ومحترما من جانب كل من المسلمين والهندوس ، فقد توقف الصراع بالفعل ·

ولكن حياة هذا الزعيم العظيم كانت قد اقتربت من نهايتها · ففى يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٤٨ ، وبينما كان يمشى ببطء خارجا من بيته متجها الى معبد قريب لأداء الصلاة ، ووسط جمهور حافل ابتمع لشاهدته وللاشتراك معه فى صلاته ، اندفع شاب « هندوسى » من بين الناس وأطلق الرصاص على غاندى ، ظنا منه أنه يقف الى جانب المسلمين أكثر من وقوفه الى جانب الهندوس ·

وبعد دقائق خرج أحد الرجال من البيت الذى نقل اليه الزعيم المصاب ، وأعلن للناس الذين تجمعوا : أن غاندى قد مات ؟

وفى نفس الليلة ، أعلن الزعيم الهندى « بانديت نهرو » من اذاعة الهند :

« لقد انطفأ النور من حياتنا ‥ وحل الظــــلام فى كل مكان ‥ لقد رحل الأب الروحى لأمتنا ‥ ان خير صلاة نقدمها لروحه هى أن نتمسك بأهداب الصدق ‥ وأن نواصل رسالته النبيلة التى عاش من أجلها ومات من أجلها ‥ » ٠

وبعد أيام قليلة من هذا الحادث ، وطبقا لتعاليم الديانة الهندوسية ، أحرق جثمان غاندى أمام جمهــور غفير ، ونثر رماده فوق أنهار الهند المقدسة ٠

وهكذا انتهت حياة رجل من أعظم الرجال فى هذا العالم ٠

فلورنس نايتنجيل

« حاملة المصباح »

هل مرضت يوما ودخلت الى المستشفى ؟ ..
أو هل زرت يوما صديقا لك مريضا فى احدى المستشفيات .. ؟

اذن .. لا بد أنك قد لاحظت الهدوء فى هذه المستشفى ، وأن كل شيء فيها نظيف ومرتب .. !

ولا بد أنك لاحظت أيضا عددا من الممرضات فى أرديتهن البيضاء ، وهن ينتقلن من سرير الى سرير ، ليرعين المرضى ، وينفذن أوامر الأطباء ..

هؤلاء الممرضات يبذلن جهودا كبيرة ، وتراهن دائما هادئات ودودات . يعملن كل ما فى وسعهن لجعل حياة المرضى أكثر راحة ، وأقل ألما ..

وعندما يغادر الانسان المستشفى ، يبقى فى



فلورنس نايتنجيل .

ذاكرته ما لاقاه هناك من مهــارة الأطبـــاء ورعـاية المرضات ·

ولكن المستشفيات لم تكن دائما فى مثل هذه الحال · ولم تكن الممرضات على مثل ماهن عليه الآن من نظافة ومعاونة وسلوك حسن ·

فى الماضى كانت المستشفيات مختلفة تماما عما هى عليه الآن ، وكان الناس يخافون دخولها ·

أما السبب فى هذا التغيير العظيم الذى حدث فى نظــام المستشفيات ، فيرجع بصفة رئيسية الى فتــاة شابة ، اسمها « فلورنس نايتنجيل » وكانت تسمى أيضا « حاملة المصباح » ·

١ ـ فى بداية حياتها

فى سنة ١٨٢٠ ، كان مستر ومسز نايتنجيل ـ والدا فلورنس ـ يقومان بجولة فى أوربا · وفى مدينة فلورنسا بايطاليا ، وضعت الأم طفلة أطلقوا عليها اسم « فلورنس » وهو اسم المدينة الايطالية باللغة الانجليزية ·

وكان للوالدين ابنة أخرى عمرها سنتان وقد سمياها « بارثينوب » أو « بارثى » وهو اسم مدينة نابولى بايطاليا باللغة اليونانية · ذلك لأن هذه الابنة قد ولدت هى الأخرى بتلك المدينة ·

وبعد مولد الابنة الثانية « فلورنس » عادت الأسرة كلها الى وطنها فى انجلترا ·

كان الوالدان من الطبقة الراقية · ولكن يبدو أنهما كانا على غير وفاق مع بعضهما · كانت الأم سيدة جميلة ، مرحة ، تتصف بشيء من الأنانية ، وتحب الحياة الممتلئة بالمباهج والأشياء السارة ·

أما الأب فكان رجلا لطيفا طيبا ، ولكنه كان يحب الكسل ، ومقتنعا بقضاء أيامه فى صيد الحيوانات وصيد الأسماك ، أو فى قراءة الكتب والسياحة فى مختلف البلدان · وكان ثريا لديه من الأموال ما يغنيه عن القيام بأي عمل جاد ·

وبعد أن نمت الوليدة « فلورنس » وأصبحت طفلة صغيرة ·· عاشت حياة بعيدة عن السعادة · كانت مختلفة عن البنات الصغيرات اللاتى يماثلنها فى العمر فى أشياء كثيرة ·

والغريب أنها كانت لا تشعر بالسعادة ، برغم أن بيتها كان حافلا بكل المسرات · فلديها ولدى أختها

مجموعة من الخيول والكلاب والقطط والطيور الملونة .
وكانت فلورنس تشعر بأن كل هذه المسرات لا تهمها ، وترى أن الحياة فى بيت أبيها ليست الحياة التى تريدها لنفسها .

كانت تتمتع بقدر كبير من الخيال ، فتهرب دائما الى عالم الأحلام .. وكانت تؤلف قصصا تحكيها لنفسها ، وكانت تعطى لنفسها دور البطلة فى تلك القصص .. ولشدة انغماسها فى عالم الخيال ، أصبحت تحس بعدم وجود أية علاقة تربطها بأمها .

وكانت الأختان « بارثى » و « فلورنس » تتلقيان دروسهما فى البيت على يدى الأب واحدى المدرسات التى كانت تحضر الى البيت لتعليم البنتين . وكان الأب يدرس لهما أصول اللغة والتاريخ . ولاحظ الأب منذ البداية أن « بارثى » غير مقبلة على تلقى الدروس وأنها كانت تفضل البقاء مع أمها فى غرفة المعيشة ، وذلك على عكس « فلورنس » التى كانت تفضل البقاء مع أبيها فى المكتبة لتلقى المزيد من العلم والمعرفة . وكا لهذا الانقسام الذى حصل فى الأسرة نتائج غير سارة

ويمكننا الآن أن نعرف الكثير عن المشاعر والأحاسيس الداخلية التى كانت تعتمل فى نفس « فلورنس نايتنجيل » لأنها كانت حريصة – منذ صغرها – على كتابة أفكارها ووصف مشاعرها . كانت تصب على الورق كل ما كان يدور بعقلها وكل ما يعتمل فى صدرها . وكانت تكتب على كل أنواع وأشكال ومقاسات الورق وقصاصاته . ومازال الكثير من هذه الوريقات محفوظا حتى الآن ، ويمكن قراءة ما دونته فلورنس من أفكار ومشاعر فى هذه السن المبكرة ثم بعد ذلك فى مختلف مراحل عمرها .

٢ ـ أصوات تناديها

وفى سن السابعة عشرة ، حدث شىء هام جدا فى حياتهـا ٠٠ شىء يشبه ما حدث من قبل للفتـاة الفرنسية « جان دارك » ٠ ففى احدى الأوراق التى كتبتها فلورنس فى هذه السن نقرأ ما يلى : « فى ٧ فبراير ١٨٣٧ سمعت صوتا ينادينى من السماء ويدعونى لكى أكرس حياتى لخدمة الله » ٠

ولم يكن الصوت حلما من الأحلام ، وانما كان صوتا حقيقيا وصفته فلورنس بأنه كان صوتا عاليا ينطلق الكلمات بوضوح ٠

وربما نقول ان ذلك ليس غريبا بالنسبة لفتاة صغيرة فى السابعة عشرة من عمرها وتعيش فى عالم من الخيالات والأحلام · ولكن فلورنس بعد أربعين سنة من هذا التاريخ كتبت فى مذكراتها أنها سمعت هذا الصوت أربع مرات خلال حياتها ·

ولكن هذا الصوت الذى دعاها الى أن تكرس حياتها لخدمة الله ، لم يوضح لها كيف تقوم بهذه الخدمة ، أو ما هو نوع هذه الخدمة بالضبط وكيفية ومكان أدائها ·· وكانت فكرة التمريض بعيدة تماما عن عقلها فى ذلك الوقت ·· برغم أنها كانت تحرص تماما على أداء دور الطبيب لعرائسها ودماها ، كما كانت تعتنى بصحة حيواناتها وطيورها ، وتعطف كثيرا على الرضع والأطفال الصغار ·

وكتبت فلورنس أيضا ، أنها أصبحت تحس بالسلام النفسى بعد سماع هذا الصوت ، وأنها على يقين من سماع هذا الصوت مرة أخرى ·

٣ ـ التجارب الأولى

مرت سنوات عديدة قبل أن تتضح الأمور • وكانت سنوات كئيبة صعبة •• لقد سافرت الى أوربا فترة ، ولكنها كانت لا تستريح الا في لندن • برغم ما فيها من التعاسة وسوء التفاهم بينها وبين أمها وأختها •

وحدثت مناسبتان جعلتاها تؤمن بأن طريق حياتها هو الخدمة في المستشفيات والعناية بالمرضى • فقد مرضت جدتها لأمها فقامت برعايتها • كما مرضت سيدة عجوز أخرى كانت تخدم في المنزل لمدة طويلة ،

فقامت برعايتها هى الاخرى · ثم بدأت ترعى المرضى الآخرين من أهالى القرية التى كانت تعيش فيها ·

وتعلمت فلورنس من هذه التجارب شيئا هاما ، هو أن التمريض أمر قاصر على النساء فقط ، ويجب على السيدة أو الفتاة التى تمارس التمريض أن تكون طيبة وعطوفة ولا تمل من مساعدة المرضى ·

وقد اقتنعت فلورنس أيضا بضرورة أن تكون الممرضة مؤهلة ومدربة على القيام بواجباتها وأن تعرف أيضا متى وكيف تقوم بهذه الواجبات · ولكن الأهم من هذا كله هو كيف تحصل هى نفسها على مثل هذا التأهيل والتدريب ·

وفجأة خطرت بذهنها فكرة تتعلق بحل هـــذا الموضوع · فهناك على مسافة غير بعيدة عن بيتها توجد احدى المستشفيات ، ومدير هـذه المستشفى صديق لعائلتها ، وأن عليها الآن أن تطلب من العائلة أن تسمح لها بالعمل فى هذه المستشفى لمدة ثلاثة شهور تتعلم فيها التمريض ·

وما أن أعلنت فلورنس رغبتها هذه لأسرتها حتى هبت عاصـفة عاتية من التعاسة . فقد استاء الأب وتكدر صفوه . فهل بعد كل هذا الجهد الذى بذله فى تعليمها .. وكل هذه السياحات فى أوربا .. وكل هـذه الملابس الجميلة الفاخرة التى اشتراها لهـا من باريس .. تأتى هذه الشابة الغريبة وتقول أنها تنوى أن تصبح ممرضة .. ؟!

أما أمها فقد وقع عليها هذا الخبر وقع الصاعقة.. وأصابتها نوبة من الغضب ، ثم انفجرت باكية ..

يالمسكينة فلورنس .. لم يعد هناك أحـد فى صفها .. كلهم أصبحوا ضدها .. لقد أحست بالضياع وفقدت شجاعتها . وكتبت تقول فى هذه الفترة :

« لم أعد أجد مبررا لاستمرار الحياة .. ولن أجد شيئا آخر لأعمله .. انى أقل شأنا من التراب .. انى لا شىء على الاطلاق .. ! » .

٤ ـ المستشفيات فى الماضى

قد يكون من السهل أن نلوم والدى فلورنس لوقوفهما ضد رغبة ابنتهما ، ولكن يجب ألا نتسرع فى الحكم عليهما بذلك . ففى سنة ١٨٤٥ كانت المستشفيات من الأماكن المخيفة .. مملوءة بالقذارة والفوضى ، ومزدحمة بالمرضى والآلام ، وتنبعث منها روائح كريهة لا تطيقها الأنوف .

هناك نحو خمسين أو ستين سريرا متجاورة بين كل منها مسافة ضيقة لا تتجاوز نصف المتر . وليس فيها سوى مدفأة واحدة فى أحد الأركان تستخدم فى

فصل الشتاء . وجميع النوافذ مغلقة . وكان المرضى من أفقر الفقراء الذين يعيشون فى أفقر أحياء المدينة . وكانوا يلجأون الى المستشفى وهم فى منتهى القذارة ، ويبقون بها وهم فى منتهى القذارة ، ثم يخرجون منها ــ ان بقوا على قيد الحياة ــ وهم فى منتهى القذارة .. وكثيرا ما كان المرضى يتصارعون ويتشاجرون فيما بينهم ، ويسكرون بشرب الخمور الرخيصة ، وكثيرا ما كان البوليس يتدخل لفض المنازعات واقرار النظام .

وبالاضافة الى كل هذه الأشياء السيئة ، هناك أسوأ الأشياء على الاطلاق .. الممرضات ! .. وهن نساء جاهلات لا يعرفن شيئا عن التمريض .. أخلاقهن سيئة ويسكرن بشرب الخمور الرخيصة طول الوقت .

وتقول فلورنس ان رئيسة الممرضات فى احدى المستشفيات الكبيرة ، ذكرت لها أنها لم تر طوال حياتها ممرضة لا تشرب الخمر حتى تسكر وتفقد وعيها !

ومرت ثمانى سنوات بعد أن أعلنت فلورنس رغبتها فى العمل كممرضة ووقوف أسرتها ضد هذه

الرغبة ٠٠ وكانت سنوات صعبة ، لأنها ما زالت مصرة على العمل كممرضة ٠ ورفضت بالتالى أن تتزوج من شاب كانت تحبه ويحبها ، اذ كيف تتزوج وتترك « الخدمة » التى دعاها اليها صوت من السماء ٠

وخلال تلك السنوات ، لم تغب المستشفيات عن ذهنها أبدا ٠٠ قرأت عنها كل ما وصلت اليه من الكتب والتقارير ٠ وتعلمت من المرضى مظاهر وصفات الأمراض التى كانوا يعانونها ٠ وكانت تقوم فى الصباح الباكر ــ حتى فى أيام الشتاء الباردة ٠٠ لكى تواصل قراءاتها عن المستشفيات وأحوالها السيئة المتردية ، ولكى تزيد من حصيلتها من المعرفة بمختلف أنواع الأمراض ، ثم تنضم بعدئذ الى أسرتها لتعيش معهم الحياة العائلية العادية ٠

٥ ـ بداية تحقيق الأمل

وبينما كانت الأسرة فى زيارة لألمانيا فى احدى المرات ، وبدون اذن من والديها ، عملت فلورنس فى احـدى المستشفيات .. وكانت فى كل يوم تزداد معرفة وخبرة بأحوال المستشفيات وأحوال المرضى . وفى الوقت نفسه كانت تزداد وثوقا بنفسها ويقينا بأن الأمل فى تحقيق رغبتها ليس بعيد المنال .

وفى ربيع عام ١٨٥٣ ، دعيت فلورنس للاشراف على ملجأ للعجائز من النساء الفقيرات اللاتى لا يملكن أجر العلاج بالمستشفيات . وكانت الجماعة التى تدير

هذا الملجأ قد قررت نقل هذا الملجأ الى بيت آخر ، وكانت فى حاجة الى متطوعة لتقوم بهـــذا العمل ، ولتصبح مشرفة عامة على الملجأ ·

وبدون موافقة أهلهـا ، اتفقت فلورنس على أن تقوم بهذا العمل دون مقابل ، ولكن بشرط أن توافق الجماعة على تنفيذ ما نراه وتقرره ·

وكان أبوها قد خصص لها خمسمائة جنيه سنويا كمصروف شخصى لها · وقد ساعدهــا فى أن تبدأ عملها الشاق على الفور ··

أصبحت الآن تقوم بمئات الأعمال بهمة ونشاط ودون كلل · من العناية بالمريضات الى تلبية طلباتهن العديدة المتنوعة ، الى اعداد الطعام ، وتسوية الأسرة والفراش ، الى وضع الفحم فى المدفأة الى آخر تلك الأعمال الشاقة · ولكنها مع ذلك كانت راضية وسعيدة بهـا ·

وقد وصف بعض الأصدقاء حالتها فى تلك الفترة بأنها كانت شابة طويلة مليحة ، تشع بهجة وأملا ،

ترتسم على وجهها ابتسامة عذبة حلوة ، وتحمل مشاعر الود للجميع .

أما السيدات المريضات فى هذا الملجأ ، فقد أحببنها حبا جما . وقد عبرن عن هذا الحب فى بعض الخطابات التى أرسلنها اليها .. فهناك خطاب يقول : « يا أعز انسان وأطيب انسان .. الآنسة نايتنجيل .. انى أرسل اليك بعض سطور من الحب ... » . وهناك خطاب آخر يقول : « شكرا لك .. لقد كنت شمسنا المشرقة التى تحنو علينا .. » .

وبالاضافة الى هذا الجمال والصفات الودية التى تميزت بها فلورنس نايتنجيل ، كانت تتميز أيضا بعزيمة صلبة . ولها قدرة فائقة على جعل الناس يتعاونون مع بعضهم وينظمون أعمالهم على خير وجه .

وكل ما قامت به فلورنس نايتنجيل حتى هذه اللحظة ، كان مجرد استعداد لعمل كبير ينتظرها .. وكانت هناك أحداث كبرى على وشك الوقوع .. أحداث كان لها فيها دور هام لا ينسى ..

٦ ـ بداية حرب القرم

لقد نشبت الحرب بين انجلترا وروسيا . وأرسل الجيش البريطانى الى القرم على البحر الأسود لمحاربة الجيش الروسى . وكان مقر قيادة الجيش البريطانى فى قرية « سكوتارى » وهى قرية كبيرة تقع بالقرب من استانبول .

وكان الجنود الانجليز يحاربون بشجاعة برغم ما ينقصهم من الكثير من المستلزمات . كانت تنقصهم الخيام ، ويشكون من قلة الطعام ، ومن عدم وجود الأطباء أو الرعاية الطبية اللازمة لجرحى المعارك . وكان

آلاف من هؤلاء الجرحى يسقطون دون أن يهتم بهم أحد ، وكان أغلبهم يموتون بسبب الاعمال فى معالجة جروحهم • فقد كان هؤلاء الجرحى يرقدون على الأرض فى صفوف طويلة دون أى طعام أو ماء أو علاج •

وسقوط الجرحى فى المعارك الحربية يعتبر شيئا معتادا فى الجيوش • ولكن الشعب الانجليزى لم يكن يعلم شيئا عن الحالة البائسة التى يعانى منها جرحى الجيش البريطانى فى حرب القرم • الى أن قام كاتب مشهور من احدى الجرائد الهامة التى تصدر فى لندن ، بزيارة لميدان الحرب ، ورأى الأحوال السيئة فى المعسكرات والمستشفيات الميدانية ، فوصف الكاتب كل ما رآه من أهوال ، ونشرت جريدته قصصا مخيفة تقشعر منها الأبدان •

كان الجرحى يجبرون على الانتظار لمدة اسبوع على الأقل قبل أن يفحص الطبيب جروحهم • وكانت هناك لا يمكن معالجتها بسبب عدم وجود الأربطة ، أو بسبب عدم وجود من يقوم بربط هذه الجروح •

وبمجرد نشر هذه المقالات فى الجريدة اللندنية ،

غضب الشعب الانجليزى غضبا شديدا ‥ وثارت عدة تساؤلات : لماذا هذا النقص الشديد فى الأطباء وفى المعدات الطبية ‥ ومن المسئول عن هذا الخطأ الكبير ٠ وأخذ الشعب يلوم المسئولين في الحكومة ٠ وكان من ضمن الملومين شخص يدعى « سيدنى هربرت » وكان يشغل وظيفة حكومية هامة ، وكان فى نفس الوقت صديقا « لفلورنس نايتنجيل » ٠

كان هـــذا الصـــديق يعلـــم أن فلورنس تعرف الكثير عن شئون المستشفيات وطرق رعاية المرضى ٠ فأرسل اليها خطابا مفصلا يعرض فيه أفكاره ، وقال فيـــه :

« ان المستشفى الميدانى فى « سكوتارى » فى حاجة شديدة الى ممرضات ‥ لأن الجرحى هناك يعانون كثيرا من عدم الرعاية ‥ وانى أعرف أن هناك عددا لا بأس به من السيدات والآنسات يرغبن فى التطوع كممرضات ، ولكنهن لا يعلمن أى شىء عن التمريض وليس لديهن أية فــكرة عن المستشفيـــات ، أو عن الواجبـــات المطلوبة منهن ‥ وانى أعرف أن هناك

شخصا واحدا فى انجلترا كلها يستطيع أن يقوم بحل المشــكلة ٠٠ هو أنت ٠٠ أنت وحدك تستطيعين أن تختارى هؤلاء الممرضات وتوجهيهن الوجهة السليمة لأداء عملهن على خير وجه ٠٠ وأنا أعرف أنهــا مهمة صــعبة ، فمــا رأيك ٠٠ هل تقبلين القيــام بهــذا الــواجب ٠٠ وانى على يقين بأنــك ستقررين الأمر بحكمة ٠٠ وأدعو الله أن يكون جوابك بالموافقة ! » ٠

٧ ـ تلبية النداء

كانت هذه الرسالة بمثابة الفرصة السانحة التى هيأتها السماء لفلورنس نايتنجيل لكى تحقق أهدافها ولكى تثبت مدى الأهمية الكبرى لوجود الممرضات ..

وكانت عيون الشعب الانجليزى منجهة كلها الى حيث يوجد الجيش البريطانى فى « سكوتارى » . ومعنى ذلك أنه اذا فشلت النساء فى العمل كممرضات لرعاية المرضى والجرحى فى مثل هذه الظروف الصعبة فلن تقوم لفكرة فلورنس فى تطوير عمل الممرضات فى المستشفيات أية قائمة .

وهكذا كان لزاما عليها أن تقبل هذه الدعوة ، وأن تفعل كل ما فى وسعها لضمان نجاحها • ولكن المشكلة الحقيقية تكمن فى كيفية اختيار الممرضـــات المطلوبات •• فأين تجدهن يا ترى •• ؟!

ولم يكن هذا بالعمل الهين ، خصوصا وأن الوقت كان ضيقا • وعلى أية حال ، فقد جمعت فلورنس ثمان وثلاثين سيدة بعد أن استبعدت الشابات الصغيرات • وكان بعضـــهن على دراية بسيطة بأصـــول العمل • وجميعهن قد تقدمن لهذا العمل ليحصلن على أجر أعلى من أجورهن فى انجلترا •

وبسرعة فائقة ، أعدت لهن ثيابا خاصة موحدة الشكل ورمادية اللون وخالية من الجمال أو الشياكة • وكانت هذه أول فرقة من ممرضات الآنسة نايتنجيل•

٨ ـ فى تركيا

وكانت أيام الاعداد لتكوين هـــذه الفرقة من الممرضات حافلة بالعمل • وعندما علمت أمها مسز نايتنجيل واختها بارثى بأن الحكومة قد اختارت فلورنس لهذه المهمة الصعبة ، أسرعت الأم والأخت الى لندن لمساعدتها فى اعداد الفرقة •

وهكذا رحلت فرقة الممرضـــات إلى فرنسا عبر بحر المانش ، ثم أخذت القطار الى جنـوب فرنســا • ومن هناك ركبن سفينة متجهة الى استانبول • وكانت رحلة بحرية عاصفة ، فقضت فلورنس معظم الوقت

راقدة فى الفراش تعانى من دوار البحر ·

واخيرا وصلن الى استانبول فى الثالث من نوفمبر سنة ١٨٥٤ ، ونزلن الى الشاطىء · وهبت عليهن رياح باردة ، وتجمعت حولهن كلاب جائعة ، وشاهدن جثة حصان طافية فوق سطح الماء ، ومجموعة من الجرحى واقفين فى يأس · وتسلقت الفرقة منحدرا صغيرا · وشاهدن المستشفى الميدانى لأول مرة ·

٩ ـ المستشفى فى أسوأ حالة

كان المبنى من الخارج يبدو ضخما وذا منظر خادع • فقد كان فى الأصل معسكرا للجنود الأتراك وحولوه الى مستشفى نظرا لظروف الحرب •

أما داخل المبنى فقد كان الأمر سيئا الى أقصى حد •• فهناك فناء واسع جدا تحف به من جميع الجوانب حجرات وقاعات لا حصر لها ، كلها ذات أرضيات محطمة وحوائط تنضح منها الرطوبة •

وكان أحد أجزاء هذا المبنى الضخم قد تعرض لحريق كبير ، فهجر لمدة طويلة وأوقف استعماله •



المستشفى فى سكوتارى .

والجزء الثانى كان عبارة عن معسكر للجنود • والجزء الثالث كان اصـــطبلا للخيول ومحلا لشرب القهوة والنبيذ • والأسوأ من ذلك كله عدم وجود مياه صالحة للشرب ، كما أن أنابيب مجارى الصرف الصحى كانت معطلة تماما وغير صالحة •

وكان عدد الجنود الجرحى الذين يموتون بسبب الأمراض التى أصيبوا بها فى هذا المستشفى ، أكثر من عدد الجنود الذين كانوا يموتون بسبب ما أصيبوا به من جروح فى المعارك الحربية •

وكان الجنــود الجرحى متناثرين فى كل أنحــاء المبنى ، ولا يشرف عليهم أحد على الاطلاق • وقــد أقبل فصل الشتاء والمستشفى خال تماما من أى مؤن أو معدات أو مستلزمات • ولا توجد به حتى الشوك والسكاكين والملاعق الخاصة بتناول الطعام •

وكانت قواعد الخدمة بالجيش تقضى بأن الجندى المحــال الى المستشفى ، لا بد أن يصحب معه أمتعته وملابسه وأدواته وعهدته التى استلمها من الجيش ••

ولكن كيف يمكن أن يصطحب جندى جريح كل هذه الأشياء ؟! ٠٠ وكيف كان يمكن المحافظة على كل هذه الأشياء أثناء استعار المعارك الحربية بكل ما فيها من اضطراب ٠٠ ؟!

ولكن هـذه كانت الأوامر ٠٠ وهى أوامر غبية متعسفة وظالمة ٠ فالجنود الجرحى وغير الجرحى كانوا يفقدون عهدتهـم فى أغلب الأحـوال ٠٠ وحين كانوا يتوجهون الى مخازن الجيش ليطلبوا أدوات جديدة بدلا من الأدوات التى فقدوها ، كانوا يتلقون اجابة واحدة جاهزة : نأسف أيها الزميل العزيز ٠٠ كان يجب أن تحافظ على عهدتك !

١٠ ـ استقبال بدون ترحيب

خصصت للآنسة نايتنجيل وممرضاتها الثمانية والثلاثين ثلاث حجرات ضيقة ، كان يشغلها من قبل ثلاثة من الأطباء ٠٠ كانت حجرات قذرة ليس فيها سوى الفئران والحشرات وثلاثة من المقاعد وجثة ضابط روسي قتيل ٠

لم يرحب الأطباء اطلاقا بوصول هؤلاء الممرضات ، وكانوا يقولون دائما : من أحضر هؤلاء الممرضات ؟!٠٠ وماذا يمكن أن تفعل مجموعة من النساء وسط الجنود الجرحى ؟!

وتجاهل الأطباء وصول الممرضات ، وقرروا عدم التعامل معهن · وصممت فلورنس نايتنجيل من جانبها على عدم بدء العمل الا بعد قبول الأطباء لوجودهن من ناحية المبدأ · كانت مقتنعة تماما بأن الممرضات لا بد أن يعملن تحت اشراف الأطباء ·· ذلك لأن الواجب الأول على كل ممرضة أن تقوم بتنفيذ أوامر الطبيب ·

وهكذا ظلت فلورنس وممرضاتهـا منتظرات أى استدعاء لهن من جانب الأطباء ·· ولكن دون جدوى ·· ومر اسبوع لم يفعلن فيه شيئا سوى اعداد الأربطة وتجهيزها لتضميد الجروح ·· بينما كان الجنود الجرحى لا يتلقون أى علاج ·

وكانت حالة المطابـخ فى المستشفى فى منتهى السوء · كان الطباخون يلقون بقطع كبيرة من اللحم فى قدور ضخمة يوقدون تحتها النار · وعندما يظنون أن اللحم قد نضج ـ سواء أكان قد نضج بالفعل أو لم ينضج بعد ـ كانوا يأمرون مساعديهم باطفاء النار بجرادل مملوءة بالماء · ثم يقومون بتوزيع هـذا اللحم على الجنود الجرحى والمرضى كيفما اتفق ، فبعضهم كان

يحصل على قطعة ناضجة ، وآخرون يحصلون على قطع مازالت نيئة ، وكثيرون كانوا يحصلون على قطع من العظم الخالص · أما أغلبية الجنود فكانوا لا يحصلون على شيء !

وبطبيعة الحال كان من النادر وجود الخضراوات ·· أما الشاى ، فقد كان أمره مروعا ·· كانوا يغلونه فى نفس القدور والأوعية الضخمة التى يسلقون فيها اللحم دون أن يغسلونها مما علق بها من دهون وبقايا الشوربة ، ولذلك فقد كان مذاقه يثير الغثيان ، ولا يمكن أن يشربه أحد أو يستسيغه أحد ·

وأخيرا سمحوا لفلورنس نايتنجيل وفرقة الممرضات أن يدخلن الى المطابخ ليشرفن على اعداد الطعام والتأكد من طهيه بطريقة مناسبة · وكان هذا أول عمل قمن به فى هذه المستشفى !

١١ ـ بداية العمل

وفجأة حدث تغيير كبير · فقد ساءت الأمور فى القرم حيث تدور المعارك · وسقط المطر مدرارا فحول الأرض الى بحيرات من طين · ونقصت مقـــادير الطعام التى كانت تصل الى الجنود المحاربين فى الميدان ، كما أصبحوا جميعا بلا مأوى يقيهم من برد الشتاء القارس وبدأت أفواج من الجنود المرضى يصلون الى المستشفى قادمين من القرم عبر البحر الأسود ·

وازدادت الأمور سوءا حين هبت رياح كالاعصــار المدمر ، فتهدمت البيوت والمباني ، وسقطت الأشجار

الضخمة واقتلعت من جذورها ، وطارت الخيـــام فى الهواء ، وغرقت سفن كثيرة ، وفسدت كميات هائلة من الامدادات والتموين ٠ وأصبح الجنود المساكين نصف مدفونين فى الطين والماء البارد ، بلا طعام وبلا غطاء ٠

ويوما وراء يوم ، تدفقت الى المستشفى جماعـات غفيرة من المرضى والجرحى يعدون بالمئات ٠ فامتـلأت بهم كل حجرات المستشفى وكل قاعاتها ٠ وتمددوا فى صفـوف طويلـــة متراصـــة على الأرض ٠ وأصبحت المستشفى فى حالة يرثى لها ٠

أما الأطباء ، خصوصا الكبار منهم ، فكانـــوا يعملون كالأسود ، بل وكانوا يظلون واقفين على أرجلهم لاربع وعشرين ساعة متوالية ، محاولين فحص أكبر عدد ممكن من الجرحى والمرضى ، ولكن بلا جدوى ٠ فهناك نقص شديد فى الأغطية ومفارش الأسرة ، ونقص شديد فى الأدوية والأدوات الطبية ، ونقص شديد فى تجهيزات المستشفى ومستلزماتها ٠

وكان آلاف من المرضى والجرحى يرقدون على الارض فى انتظار الموت أو أى مصير تعس آخر ٠

وعندما يئس أطبـاء المستشفى تماما وأصبحوا عاجزين عن ملاحقة هذه الحالة المتدهورة ، قرروا أخيرا الاستعانة بالآنسة نايتنجيل وفرقة ممرضاتها ٠

وما أن شرعت فرقة الممرضات فى العمل ، حتى حلت روح جديدة وبدأت الأمور تتحسن رويدا رويدا ٠ وفهم الأطبـاء أخيرا أن هنـاك شخصا واحـدا فى « سكوتارى » كلها يستطيع أن ينقذ الموقف بما معـه من نقود وأموال ، وبما فى شخصيته من قوة وقدرة على وضع الأمور فى نصابها السليم ٠٠ هذا الشخص هو الآنسة فلورنس نايتنجيل !

لقـد وصـلها مبلغ كبير من المـال من لندن ، فاستخدمته على خير وجـه ٠ كانت الأرض فى منتهى القذارة فاشترت مائتى فرشاة لمسح الأرض والبلاط ٠٠ وكانت ملابس الجنود لم تغسل منذ أسابيع طويلـة فاستأجرت بيتا واستأجرت مجموعة كبيرة من النساء الأتراك ليغسلن ملابس الجنود ٠٠ كما اشترت من أسواق استانبول جميع المستلزمات الاخرى مثل الملاعق والشـوك والسـكاكين والمقصات وأمشاط الشـعر

والصابون والمناضد والقمصان والأطباق وأوانى الطعام .

وفى بداية شهر ديسمبر ، وصلت أخبار بأن نحو ستمائة جندى جريح ومريض فى طريقهم الآن الى المستشفى ، قادمين عبر البحر الأسود . ولكن المستشفى كان مملوءا عن آخره ، ولا يمكن أن يتسع لأى وافد جديد . فما العمل ؟!

لم يكن هناك الا القسم المهجور الذى كان قد تعرض فيما قبل الى الحريق .. فلو تم اصلاح هذا القسم وترميمه لأصبح فى الامكان توفير مكان لايواء نحو ألف مريض وجريح . ولكن هذا الترميم يحتاج الى مال وعمال ، ويحتاج الى أمر من شخص مسئول ليبدأ العمل .. ولم يكن هناك الا فلورنس نايتنجيل ، فهى وحدها القادرة على هذا الانجاز .

١٢ ـ الاشراف على تطبيق النظام

أخذت كل شيء على عاتقها ، فاستأجرت نحـو مائتين من العمال قاموا بانجاز العمل فى أقل وقت • وعندما وصل المرضى والجرحى ، فلم يكونوا ستمائـة فقط وانما كانوا ثمانمائة أو أكثر • ولكن كل واحـد منهم كان له سرير خاص يرقد عليه •

وقد وصف أحد المرضى مشاعره بعـدما غادر المركب القذر الذى نقله من الميدان الى « سكوتارى » واستقبلته الآنسة نايتنجيل وفرقة الممرضات وقدنه الى سرير نظيف وقدمن اليه طعاما ساخنا : « لقد احسسنا بأننا انتقلنا الى النعيم ! » •

ولم تكن العلاقات بين فلورنس نايتنجيل وممرضاتها علاقات طيبة فى كل الأحوال . فهى تؤمن بضرورة الطاعة والالتزام بالنظام ، لأنها تريد أن تثبت للعالم أهمية عمل المرأة كممرضة . وهى تعلم أن وجود بضع نساء بين آلاف من الرجال هو أمر يحتمل معه حدوث بعض المشاكل ، ولهذا فقد كان لا بد من تطبيق نظام صارم ، ولا بد أيضا من طاعة كل أوامرها وكل نواهيها .

وكانت بعض الممرضات يشكين من قبح شكل غطاء الرأس الذى أجبرن على لبسه . وبعضهن كن يشكين من منعهن من الدخول الى غرف المرضى بعد الساعة الثامنة مساء . وآخريات كن يشكين من منعهن اعطاء المرضى ما يناسبهم من الطعام الا بعد الرجوع الى أمر الطبيب وموافقته . كما أن كثيرات منهن كن يكرهن الآنسة نايتنجيل لأنها كانت صارمة جدا ومن الصعب ارضائها .

وكان من اللازم مرور بعض الوقت حتى تعتاد الممرضات على تنفيذ كل هذه الأوامر والالتزام بالنظام

الصارم الذى وضعته فلورنس نايتنجيل •

وفى خلال تلك الفترة عاشت حياة صعبة حافلة بالعمل • ولم تكن صحتها على ما يرام فى جميع الأحوال، بسبب كل تلك الظروف السيئة فى « سكوتارى » •• وعندما تمطر السماء ، كانت قطرات المطر تتساقط فى حجرتها من خلال شقوق السقف • كما أن الطعام كان لا يناسبها •

وكان من النادر أن تغـــادر مبنى المستشفى حيث كانت تقضى فيه طول الوقت ليل نهار •وعندما كانت تصل أفواج جديدة من المرضى والجرحى ، كانت تظل واقفة على قدميها لأربع وعشرين ساعة متوالية • وكانت تستقبلهم بكثير من الود واللطف والعطف •

وكانت محل اعجاب وتقدير من جميع الجنود • لقد استطاعت أن تجعلهم يكفون عن السب ونطـــق الألفاظ القبيحة فى أحاديثهم • وجعلت بعضهم يكف عن شرب الخمر ، كما عاونتهم وشجعتهم على الكتابة الىأهليهم فى الوطن • بل وكانت تشجعهم على تحمل الألم حين كان الأطباء يجرون لهم العمليات الجراحية •

وكانت عيون المرضى والجرحى تتتبعها وهى تمر ليلا بين الحجرات لتطمئن على من فيها ، وهى تحمل فى يدها المصباح الذى اشتهرت به . وكتب أحد الجنود : « كنا نجد راحة شديدة عندما كانت تمر على حجراتنا .. قد تتحدث مع أحدنا ولكنها كانت تبتسم لنا جميعا »

١٣ ـ زيارة للقرم

وبعد حلول فصل الربيع ، وبعد أن تحسنت الأوضاع فى المستشفى • ذهبت فلورنس نايتنجيل الى منطقة قريبة من ميدان الحرب فى القرم ، وهى منطقة « بلاكافا » وذلك لزيارة المستشفى الميدانى هناك •

وبعد فترة قصيرة من وصولها الى « بلاكافا » سقطت مريضة بحمى خطيرة • فظلت راقدة لمدة اسبوعين بين الحياة والموت • وحزن الجنود المرضى والجرحى الراقدون بمستشفى « بلاكافا » حزنا شديدا• أما الجنود المرضى والجرحى الراقدون فى مستشفى

« سكوتارى » فقد أداروا وجوههم نحو الحائط وأخذو يبكون ويدعون لها بالشفاء • وعندما وصـــلت أنباء مرضها الى انجلترا استقبلها الشعب بأسف شديد •• ولكن بعد وصول أنباء قرب تماثلها للشفاء كان الناس يهنئون بعضهم بتلك الانباء السعيدة •

وعندما استطاعت أن تستعيد قدرتها على الحركة عادت مرة أخرى الى مقرها بمستشفى « سكوتارى » •

ويمكن تقسيم تلـــك الفترة من حياة فلـورنس نايتنجيل الى فترتين زمنيتين • الفترة الأولى تشمـــل الشتاء الرهيب عام ١٨٥٤ ـ ١٨٥٥ عندما استطـاعت أن تجعل من مستشفى «سكوتارى» مكانا لائقا بالمرضى والجرحى تسسوده النظافة وحسن النظام • أما الفترة الثانية فتبدأ فى ربيع ١٨٥٥ حتى موعـد عـــودتها الى انجلتـــرا فى ١٨٥٦ • وكانت فترة حافلـــة بكثير من المشاكل والصعوبات ••

١٤ ـ الأوقات العصيبة

ظهر لفلورنس نايتنجيل أعـــداء فى كــــل من المستشفى والجيش ·· ذلك لأن الأنباء التى كانت قد وصلت الى انجلترا عن سوء حالة الجنود وتدهور حالة المستشفيات الميدانية ، قد أثارت الكثير من مشـــاعر الغضب العام ، كما أثارت عاصفة عاتية من الشكاوى · الأمر الذى أدى الى غضب كبار الأطباء وكبار الضباط فى « سكوتارى » فأخذوا يوجهون اللـــوم الى فلـورنس نايتنجيل ، ويكتبون التقارير ضدها وضد طريقة عملها، وأخذوا يعملون على ترحيلها ·

وقاومت فلورنس كل هذه المحاولات بعزم وصلابة

شديدة · بل وأضافت الى أهدافها أهدافا أخرى تتعلق بتحسين أوضاع الجنود العاديين · فقد كان الضباط فى بعض الأحيان يعاملون جنودهم كما لو كانوا حيوانات ·

وقد لمست فلورنس بنفسها جميع الاحوال السيئة التى كان يعانى منها الجنود ، والتى كانت تؤدى الى جعلهم يسلكون سلوكا غير طيب ولا حميد · وقد أرسلت فلورنس الى أختها « بارثى » رسالة توضح وجهة نظرها فى هذا الشأن ، قالت فيها : لا بد أن نمنحهم فرصة ·· لا بد أن نقيم لهم المدارس ليتعلموا ·· ولا بد أن نتيح لهم الاستماع الى الخطب والدروس الطيبة ·· وأن نوفر الكتب لمن يستطيع منهم أن يقرأ ·· ولا بد أن تقدم لهم برامج التسلية والترفيه البرىء ·· وعندئذ سيتوقفون من تلقاء أنفسهم عن شرب الخمر ·· وسيصبحون أكثر طاعة واخلاصا فى كل أعمالهم ، وفى كل ما يطلب منهم تنفيذه من أوامر أيا كانت ! » ·

١٥ ـ مساعدة الجنود

لقد آمنت فلورنس نايتنجيل بضرورة مساعدة جنود الجيش ، ليس فقط عندما يكونون مرضى أو جرحى ، بل وحين يكونون أصحاء أيضا ٠٠ وكانت تؤمن بأن خدمة هؤلاء الجنود خارج المستشفى لا تقل أهمية عن خدمتهم داخل المستشفى ٠

وبالرغم من معارضة بعض الضباط ، افتتحت فلورنس ركنا للقراءة والاطلاع وخصصته للجنود الذين يستطيعون الحركة أثناء علاجهم بالمستشفى ٠ وعندما أرادت استخدام أحد المدرسين ليقوم بتعليم الأميين من

الجنود مبادىء القراءة والكتابة ، رفض الضباط ذلك بشدة ، وقالوا لها : « انك تفسدينهم يا آنسة ! » .

وقد لاحظت فلورنس أن الجنود ينفقون مرتباتهم القليلة على شرب الخمر ، لأنهم لا يستطيعون تحويل نقودهم الى عائلاتهم فى انجلترا . لذلك فقد خصصت يوما معينا فى كل اسبوع ، تتلقى فيه الأموال التى يريد الجنود تحويلها الى أسرهم ، ثم تقوم بعد ذلك باجراءات تحويل هذه النقود الى انجلترا لتسليمها الى أسر وعائلات الجنود فى جميع أنحاء انجلترا .

ثم افتتحت بعد ذلك قاعة كبيرة للقراءة والمطالعة زودتها بالأثاث وبالمناضد والمقاعد ، وزينتها بالخرائط والصور واللوحات . واشترت من أموالها الشخصية مجموعة كبيرة من الأدوات الكتابية كالورق والأقلام والأحبار ، ومجموعة كبيرة من الجرائد والمجلات .

وفى قاعة القراءة تلك كان الجنود يتجمعون أيضا لسماع الخطب والاحاديث المسلية . كما كون بعضهم فرقة للانشاد والغناء . وكون آخرون فريقا صغيرا

للتمثيل • وفريقا لكرة القدم اشترك فيه بعض الجنود الذين يمرون بفترة النقاهة • كما جهزت وأعدت بعض الألعاب الهادئة التي لا تحتاج الى مجهود للجنود المرضى أو الجرحى الذين لا يستطيعون الحركة بسهولة •

وبفضل كل هذه الجهود التى بذلتها فلورنس نايتنجيل ، تحسنت صورة الجندى أمام نفسه وأمام زملائه وامام ضباطه وأمام المجتمع ككل ، واختفت تماما وبغير رجعة صورة الجندى السكير العربيد المستهتر •

وفى ابريل ١٨٥٦ انتهت الحرب بين انجلترا وروسيا ، وبالتالى فقد قل العمل فى مستشفى « سكوتارى » • وما أن حل شهر يوليو ، حتى رحل آخر جندى من المستشفى عائدا الى انجلترا • وهكذا انتهى تماما عمل فلورنس نايتنجيل فى حرب القرم ، واستعدت هى الأخرى للعودة الى بيتها •

١٦ ـ العودة الى البيت

كانت انجلترا كلها ترغب فى تكريمها · فالنقارير التى كتبت ضدها كانت لا تساوى شيئا أمام العرفان بالجميل من عشرات الآلاف من الجنود وعائلاتهم فى انجلتـــرا · ولذلك فقـد قـام البعض باعـداد خطـة لاستقبالها استقبالا لائقـا ، يخرجون فيه لتحيتها فى احتفال تعزف فيه الموسيقى وتلقى فيه الخطب لتمجيدها وتمجيد مشاعرهـــا النبيلة · بل وأرادت الحكومة أن تتيح لها العودة على ظهر احدى السفن الحربية ·

ولكن فلورنس نايتنجيل لم تكن راغبة فى كل

ذلك ٠وركبت سفينة عادية دون أن تعلن عن شخصيتها الحقيقية ، وأطلقت على نفسها اسم « الآنسة سميث » ٠ وأوصلتها هذه السفينة الى جنوب فرنسا ٠ ومن هناك ركبت القطار الى شمال فرنسا ٠ ثم عبرت المانش على سفينة عادية أوصلتها الى لندن ٠

وكان أبوها وأمها وأختهـا جالسين فى قاعات البيت حين وصلت ٠ وكانت خادمة البيت العجوز أول من رأتها ٠ فقد كانت الخادمة عندئذ جالسة فى حجرتها حين رأت سيدة ترتدى ملابس سوداء ، تتجه نحو بوابة البيت ٠ وعندما تحققت الخادمة من شخصية هذه السيدة ، أطلقت صرخة فرح عالية ، وانهمرت من عينيها الدموع ، واندفعت نحوها لترحب بها ٠٠

لقد عادت فلورنس نايتنجيل أخيرا الى بيتها ٠

١٧ ـ بعد الحرب

عندما عادت الى البيت، كانت متعبة مرهقة منهوكة القوى ومريضة . ومع ذلك فقد كانت تفكر فى الأعمال الكثيرة التى قررت القيام بها . وأهمها وضع الخطط لتحسين أحوال الجنود العاديين فى الجيش بعد أن رأت بعينها ما يعانونه من سوء المعاملة وقلة الخدمات المقدمة لهم .

وكان عليها أن تقنع السلطات فى انجلترا بكل أهدافها ، ولكن بعد أن تكسب احترام هذه السلطات لكى تقف الى جانبها فى تحقيق تلك الأهداف . لانها

كانت تظن ـ وهو ظن كان صحيحا الى حد بعيد ـ أن رجال السلطة لا يؤمنون بما تؤمن به من أهداف نبيلة لخدمة المجتمع ، ويشكون تماما فى قدرتها على القيام بأعمال مفيدة ، وذلك على العكس تماما من احساس الجنود المرضى والجرحى الذين عرفوها جيدا ، والذين كادوا يعتبرونها مثل بطلات الأساطير وقصص البطولات الخارقة !

والغريب أن فلورنس نايتنجيل قد انزوت فى بيتها بعد عودتها الى انجلترا ٠ فلم تظهر أبدا أمام الجمهور ، ولم تكتب مقالات أو تلقى أية محاضرات عامة ٠ ولم تنضم الى أى حزب من الأحزاب ٠ كانت تريد أن ينساها الناس ، وكادت أن تنجح فى ذلك ٠

ففى خلال السنة التالية لم يسمع الناس عنها أى خبر ٠ بل وظن الكثيرون أنها قد ماتت ٠ وحتى الذين عرفوها عن قرب ، أصبحوا لا يذكرون الا ما كانت تقوم به من أعمال وخدمات فى مستشفى « سكوتارى » أثناء حرب القرم ٠

لقـــد قضت فلورنس نايتنجيل نحو عامين فى « سكوتارى» وعندمـــا عـــادت الى انجلترا كانت فى السادسة والثلاثين ‥ ومازالت أمامها سنوات طويلة من العمل فى ميادين أخرى ‥

١٨ ـ أهداف حياتها

مرت عليها سنوات طويلـــة وهى مريضة تلازم فراشها ٠٠ وسنوات طويلة أخرى كانت تعمل فيهـــا ليل نهار : تزور المستشفيات ، وتضع الخطط لمساعدة المرضى والفقراء من الناس٠ وتقابل المسئولين فى الحكومة لتقدم اليهم التقارير التى كتبتها والحلول التى تراها لاصلاح الأحوال ٠

وكان أهم هدفين من أهداف حياتها ، هما تحسين أحوال الجنود العاديين بالجيش ، وتحسين أجور وأوضاع الممرضات ، وأن تجعـــل من التمريض مهنة جـــديرة

بالاحترام . وقد نجحت فى تحقيق هذين الهدفين الى حد كبير ، ليس في انجلترا وحدها ، وانما فى بقيـة أنحاء العالم المتمدين .

وبفضلها أصبحت مهنة التمريض على ما هى عليه الآن . وانشىء معهد نايتنجيل لتدريب الممرضات قرب أكبر مستشفيات انجلترا . وقد تخرجت من هذا المعهد آلاف عديدة من الشابات ، كان لهن أكبر الأثر فى تطوير مهنـة التمريض ومسـتوى الخدمـات الطبية فى مستشفيـات انجلترا . واعتبرن نموذجـا يحتذى فى مستشفيات بقية أنحاء العالم .

وقامت فلورنس نايتنجيل بتأليف كتاب صغير عن تدريب الممرضات ، مازال بعضه صالحا حتى اليوم . وبطبيعة الحـال فان كثيرا من الوسائل الجديدة قـد طرأت الآن على نظم التمريض الحديثـة . ولكن على

يامها كان كتابها يعتبر طفرة كبيرة فى التطور من حال الى حال أحسن وأفضل • ولذلك فقد طبع منه فىانجلترا آلاف من النسخ وزعت على المصانع والورش والمناجم والقرى والمدارس • كما ترجم الى عديد من اللغات الأوربية •

١٩ ـ فى أواخر أيامها

ظلت فلورنس نايتنجيل تعمل لسنوات طويلة ٠ وكرمها الملوك والملكات وكبار رجال الحكومة ٠ وكان الأطباء والجهات الحكومية يلجأون اليها ليحصلوا منها على المعلومات والارشادات الخاصة بتشغيل المستشفيات وما تحتاجه من ممرضات ٠

أما الممرضات أنفسهن ، والفقراء من الناس الذين وهبت حياتها لخدمتهم فقد كانوا أسبـــق الجميع فى الاعتراف بأفضالها وجمائلها ٠

وبمرور السنين ٠٠ قلت قدرتها على العمل ٠٠

وماتت في هدوء في بيتها . وكان عمـــرها ساعتئذ تسعين سنة !

وعلى قبرها نصب حجري صغير ، كتب عليه :

« ف . ن »

(ولدت ١٨٢٠ .. ماتت ١٩١٠)

ابراهام لینکولن

في أحد الأيام المبكرة الأولى من الحياة في أمريكا ‥ كان هناك رجل يعمل في حقل مجاور للكوخ الذي شيده من جذوع الأشجار ‥ وكان لهذا الرجل ثلاثة من الأبناء ٠

وفجأة ‥ ظهر الخطر !

نعم كان هناك الكثير من الأخطار في تلك الأيام ‥ فالمنطقة كانت محاطة بغابات كثيفة ‥ وفي تلك الغابات كان يعيش الهنود الحمر ‥ بعضهم أصدقاء ، وأكثرهم أعداء ‥



أبراهام لينكولن

١ ــ الهنود الحمر

انطلقت رصاصة ٠٠ وسقط الأب ميتا ٠٠ :

وصاح أحد الأبناء :

ــ الهنود ٠٠ الهنود الحمر !

واندفع يجرى بأقصى سرعة لاستدعاء المساعدة من أقرب حامية ٠٠ أما الابن الثانى ، فقد اندفع بدوره الى داخل الكوخ لاحضار البندقية ٠ ولكنه ما أن استدار ليواجه المهاجمين ، حتى رأى أحد الهنود الحمر ينقض على أخيه الصغير الذى لا يتجاوز عمره ست سنوات

وحمله بين ذراعيه وشرع فى الهروب به الى داخـل الغـابة ٠

وبسرعة صوب الابن الثانى بندقيته تجاه الهندى وأطلق النار ٠٠ فسقط الهندى على الأرض وانفلت الغلام الصغير هاربا تجاه الكوخ ٠ وانضم الى أخيه فى مقاومة الهجوم حتى وصلت المسـاعدة من الحامية القريبة ٠

أما الصبى الصغير ٠٠ فقد كان اسمه «توماس»٠ وهو الذى أصبح فيما بعد أبا لابراهام لينكولن ٠٠

٢ ـ الحياة الأمريكية فى الماضى

وتبدأ قصتنا هـــذه فى ولاية « كنتكى » بعد سنوات قليلة من بداية اتحاد الولايات الأمريكية مع بعضهـــا لتكوين دولة جديدة هى الولايـات المتحدة الأمريكية .

وكان المهاجرون الوافدون من أوربا يستقرون فى البداية فى الجـانب الشرقى لأمريكا المطل على المحيط الأطلنطى .. أما الشجعان منهـم فقد كانوا يتجهون صوب الغرب .. حيث الحيوانات المفترسة والهنـود الحمر والجبـــال والوديان الخصـيبة والغابات الكثيفة والسهول الواسعة .

وكانت بعض جماعات الهنود الحمر ترحب بهؤلاء الوافدين الأوربيين ، ويقدمون لهم العون والمساعدة ، بينما كانت هناك جماعات أخرى من الهنود الحمر تهاجم هؤلاء الوافدين لمنعهم من الاقامة فى تلك الأراضى ·

ولكن أغلب هؤلاء الوافدين الشجعان تمسكوا بالأرض ·· وكانوا يشيدون بيوتهم وأكواخهم من جذوع الأشجار ، ويبدأون فى زراعة الأرض بمختلف أنواع المحاصيل ·

وبمرور الوقت تدفق وافدون جدد ، وتعاون الجميع فى انشاء الطرق ثم انشاء القرى والمدن الصغيرة ·· وكلما وفد مهاجرون جدد كلما اتسع نطاق التقدم نحو الغرب بحثا عن الاراضى الجديدة الصالحة للزراعة ·· وهكذا رويدا رويدا عمرت البلاد حتى شواطىء المحيط الهادى فى أقصى غرب أمريكا ·

ولم يذهب توماس لينكولن الى مدرسة · والى أن تزوج ، كان لا يعرف القراءة ولا الكتابة · ولكن زوجته التى كانت على معرفة قليلة بمبادىء القراءة

والكتابة استطاعت أن تعلمه كيف يكتب اسمه ·

وكان الزوجان يعيشان فى كوخ بسيط مشيد بجذوع الأشجار ، فى قرية صغيرة بولاية كنتكى · وفى هــذا الكوخ ولد لهمــا طفلان ، الأول كان بنتا سمياهــا « ســاره » أما الثانى فكان ولدا ســمياه « أبراهام » ·

٣ ـ البيت والمدرسة

وكان الطفل أبراهام لا يجد شـيئا يعمله سوى اللعب مع أخته سارة ، جوار الكوخ أو فى الحقل أو عند أطراف الغابة .. وكان هذا الكوخ يتكون من غـرفة واحدة تعيش فيها الأسرة كلها . ولم يكن هناك سوى باب واحد ونافذة واحدة .

وعندما وصل أبراهام الى سن السابعة .. كان عليه أن يسير على قدميه نحو أربعة أميال (٦٤٣٧ مترا) كل يوم ليذهب الى أقرب مدرسة للبيت .

كانت مدرسة مشيدة هى الأخرى بجـــذوع

الأشجار .. وتتكون من غرفة واحدة لها باب واحد وبدون نوافذ وأرضيتها مغطاة بالقذارة .. وكانت تضج بأصوات الأولاد والبنات الذين يحفظون دروسهم قبل أن يسمعوها للمدرس .. وكانت أصوات كل هؤلاء الأطفال تختلط مع بعضها : أ.ب.ت.ث.. اثنان واثنان أربعة .. مدرسة .. م.د.ر.س.ة .. مدرسة .. القط الكبير أكل الفأر الصغير ..

وكان توماس لينكولن غير قانع بالحياة فى ولاية كنتكى . فقد كانت الأرض التى يزرعها ذات مساحة محدودة وتربتها فقيرة .. وكان يأمل فى أن يجد أرضا أوسع مساحة وأكثر خصوبة اذا رحل بأسرته نحو الغرب حيث توجد مساحات هائلة تصلح للزراعة .

وعاون أبراهام أباه فى اعداد قارب مسطح صنعاه من جذوع الأشجار . ووضعا عليه كل ما كانت تملكه الأسرة من الأثاث الذى لا يتعدى بعض المقاعد ومنضدة وبعض المعدات البسيطة الاخرى . وقام الأب بقطر هذا القارب المسطح عبر النهر ، أما الأم والطفلان

فقد امتطوا ظهر حصانين اقترضتهما الاسرة من بعض الجيران ٠

وعندما وصلت الأسرة الى أرض جديدة تصلح للزراعة ، حطت رحالها ، وتعاونوا جميعا فى تجهيز المقر الجديد ٠٠ كانوا لا يملكون حصانا ولا بقرة ٠٠ وكان عليهم أن يسرعوا فورا فى تشييد مأوى يحميهم من عواصف الشتاء التى أوشكت أن تهب ٠٠

وهكذا بدأوا فى تقطيع الاشجار واستخدام جذوعها وفروعها فى اقامة جوانب الكوخ وسقفه بعد تغطيتها بالطين ٠٠ الى أن شيدوا فى النهاية كوخا بدائيا مفتوحا من أحد جوانبه ٠

واستقرت الاسرة فى هذا الكوخ ٠٠ حتى تسنح الفرصة لبناء كوخ أكبر حجما وأحسن تشييدا ٠

٤ ـ البيت الجديد

وبالرغم أن أبراهام لم يكن يتعدى سبع سنوات عمرا ، الا أنه كان يبدو أكبر من سنه ، وأقوى من أمثاله من الأولاد .. كان يساعد أباه فى أصعب الأعمال ، وفى تقطيع الأشجار وتجهيز جذوعها لبناء الكوخ الجديد .

وكان يساعد أيضا فى اعداد الأرض الجديدة للزراعة . وفى ظرف سنة استطاع هو وأبوه أن يشيدا كوخا جيدا لايواء الأسرة.وكان يتكون من حجرة واحدة ذات سقف وجدران أربعة له باب منخفض وبدون نوافذ .

وكانوا يشعلون فرعا من فروع الشجر لتوفير الاضاءة والدفء • وفى أحد جدران الكوخ كان هنـاك بضع درجات مصنوعة هى الأخرى من جذوع الاشجار على شكل سلم يؤدى الى مكان تحت السقف • وفى هذا المكان الصغير كان أبراهام ينام على كومة صغيرة من أوراق الشجر •

أما طعام الأسرة فقد كان أغلبه من لحم الحيوانات البرية التى يتمكن الأب من اصـــطيادها • وكانوا يصنعون ملابسهم من جلود هذه الحيوانات • ونادرا ما كانوا يلبسون أحذية مصنوعة أيضا من جلود هذه الحيوانات •

وقد استطاع أبراهام ان يمسك بالبندقيـة فى مرة ، وصوبها نحو طائر كبير فأرداه قتيلا • وعندما ذهب ليحضر الطائر ، صعب عليه أن يكون هو السبب فى مقتل هذا الطائر • ومنذ هذا اليوم امتنع أبراهام عن قتل أى حيـوان حتى ولو كان من الحيـوانات المتوحشة •

٥ ـ المرض والموت

ولسوء الحظ ، تسلل المرض الى هذه الأسرة عند حلول فصل الخريف • وسقطت لأم مريضة منهوكة القوى ••

وهناك مثل ساد بين هؤلاء المستوطنين الأوائل فى أمريكا الذين زحفوا الى الغرب واستوطنوا فى الأراضى الجديدة •• كان المثل يقول : « الجبناء لا يبدأون أبدا والضعفاء يموتون فى الطريق » •

وكان أقرب طبيب الى المكان الذى تعيش فيه الاسرة ، يبعد نحو ثلاثين ميلا (نحو ٤٨ر٣ كيلو

مترا) . ولكن وطأة المرض كانت شديدة .. وماتت الأم فى وقت قصير . وكان موتها ضربة شــــديدة قاسية للأب وابراهام واخته سارة .. خصوصا وأن عمر سارة آنئذ كان نحو احدى عشرة سنة .. وبالتالى فقد كانت لا تستطيع أن تقوم وحــــدها بكل حاجات البيت .

وفى العام التالى تغيب مستر لينكولن عن البيت عدة أيام ، عاد بعدها ومعـــه أم جديدة . كان الأب يعرفها منذ مدة طويلة . وكان زوجها قد مات وترك لها ثلاثة أطفال ، ولدين وبنتا ..

كانت امرأة طيبة .. سرعان ما أصبحت أمـــا لكل من سارة وأخيها أبراهام .. وكانت لا تفـــرق فى المعاملة بينهما وبين أولادها .. كانت تحب الجميع وترعاهم بكل طاقاتها ..

٦ ـ المدرسة والكتب

كبر أبراهام وأصبح فتى يافعا ، قوى الجسم طويل القامة ٠ وكان يعمل طول الوقت فى مختلف الاشغال لأن الاسرة كانت فقيرة وفى حاجة دائمة لمعاونته ٠ فما أن ينتهى من العمل مع أبيه ، حتى يسرع الى العمل مع بعض الجيران نظير بعض النقود التى كان يعاون بها الأسرة ٠

وبالرغم من هذا العمل الشاق المتواصل ، الا أنه كان منصرفا بعقله وقلبه عن كل هذه الأعمال ٠٠ كان يتطلع دائما الى العلم والمعرفة ٠

وقد التحق أبراهام بالمدارس فى ثلاث مراحل مختلفة من حياته • المرة الأولى حين كان فى السابعة من عمره •• والمرة الثانية حين كان فى الرابعة عشرة •• والمرة الثالثة حين بلغ السابعة عشرة •وكان يقضى فى المدرسة فى كل مرة فترة قصيرة لا تتعدى أشهرا قليلة •• وكان مجموع ما قضاه فى فصـــــول تلك المدارس لا يزيد عن اثنى عشر شهرا •

ولكنه كان شغوفا بمعـــرفة المعلومات عن كل الاشياء •• فكان دائم السؤال •• يفكر كثيرا ويقــرأ عديدا من الكتب •• وعندما كان يتوصل الى معلومـة جديدة ، كان يكتبها عدة مرات حتى يحفظها عن ظهــر قلب •• وكان يقضى الأمسيات جالسا جـــوار النار ليستضىء بنورها الضئيل فى مواصلة القراءة والكتابة•

وبطبيعة الحال فلم يكن لديه أوراق تصلح للكتابة لذلك فقد كان يكتب على قطعة من الخشب هيأ سطحها للكتابة • وكان يكتب بطرف عود محترق •• وعندما كان يمتلىء سطح قطعة الخشب بالكتابة ، كان يقشرها

بسكينة ليزيل الكتابة القديمة وليجعلها صالحة لكتابة جديدة ·

واقترض أبراهام من أحد الجيران كتابا بعنوان « حياة جورج واشنطن » الذى كان أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية ·· وقد أعجب بالكتاب الى حد كبير، لدرجة انه كان يصطحبه معه الى السرير ، ويزج به بين أحد شقوق الكوخ المشيد من جذوع الأشجار ، ليواصل قراءته عند ظهور أول ضوء للنهار · ولكن السماء أمطرت بغزارة فى الليلة التالية ، ، وتخللت مياه المطر بين صفحات الكتاب فافسدتها ولم يعد الكتاب صالحا للقراءة ·

واضطر أبراهام لأن يعمل فى حقل الذرة الخاص بصاحب الكتاب لمدة ثلاثة أيام حتى يعوضه عن ثمنه ·· ومع ذلك فلم يتوقف عن اقتراض الكتب من الجيران ·· ولم يمض وقت طويل حتى استطاع أن يقرأ جميع الكتب الموجودة لدى جميع الجيران ولو كانوا على بعد خمسين ميلا من كوخه ·· وكان يقرأ

بنهم شديد .. وكان لا يشبع من التهام كنوز المعرفة المخبأة بين أغلفة الكتب .. وكان يقول دائما : « ان كل ما أريد معرفته موجود فى الكتب .. وخير صديق لى هو من يقرضنى كتابا أقرأه ! » .

وبالاضافة الى ذلك فقـــد كان طيب القلب ، محبوبا من كل الناس . وكانت زوجة أبيه تقـــول دائما : « كان مطيعا وعلى خلق رفيع .. كان لا يعصى لى أمرا .. كان أفضل غلام رأيته فى حياتى ، بـل ولن أرى مثله أبدا بين الفتيان ..! » .

كما كان يتمتع بقوة خارقة .. يســـتطيع أن يجرى بأقصى سرعة دون أن يحس بالتعب .. ويستطيع أن يكسب أية مباراة فى المصارعة بمنتهى الســهولة .. بل وكان يستطيع أن يرفع حملا ثقله ستمائة رطل (نحو ٢٧٢ كجم) دون أن يستعين بأحد ..

وحـين أصـــبح فى سن الثامنـة عشرة ، كان يستطيع أن يمسك بيده أثقل الفئوس ، ويفـرد ذراعه

بمستوى كتفه دون أن تهتز الفأس ولو هزة بسيطة .

وفى أحد الأيام اضطر لأن يسير على قدميه مسافة قدرها أربعة وثلاثين ميلا (٧٦٧ر٥٤ كم) ذهابا وعودة حتى يستمع الى خطبة كان يلقيها أحد الخطباء ٠٠ وقد استمتع ابراهام بكل من الخطبة والمشوار ٠٠

٧ ـ مغادرة البيت

وفى سن الحادية والعشرين ، شـعر أبوه بأن المكان الذى تعيش فيه الأسرة قد أصبح مزدحما بالجيران وقرر الأب أن ترحل الاسرة مرة أخـــرى الى أرض جديدة ٠

ورحلت الأسرة فعلا الى ولاية اللينوى ، واســتمر أبراهام يعيش مع الأسرة لفترة قصيرة حتى عاونهـا فى اقامة المأوى الجديد ٠ وعندئذ قرر أبراهـام أن ينفصل عن الاسرة ليبدأ حياته الخاصة ٠ وهكذا حمل فأسه على كتفه وبدأ خطواته الجديدة فى هذه الحياة ٠

وكان أول الأعمال التى كلف بها عمــلا شاقا مضنيا ولكنه فتح أمامه آفاقا جديدة ٠٠ لقد كلف بالاشتراك فى نقل حمولة مركب الى مدينة نيو أورلينز ٠٠ وكان عليه أولا أن يشترك فى تشييد طوف كبير على شكل مركب مسطح مصنوع من جذوع الاشجار المشدودة الى بعضها بالحبال ٠

وفى النهاية وصل الطوف بحمولته من البضائع الى تلك المدينة الكبيرة ٠٠ ورأى أبراهام نيو أورلينز لأول مرة ٠

٨ ـ العبيد فى نيوأورلينز

وفى خلال الشهر الأول من اقامته فى تلك المدينة رأى أبراهام عملية تجارة العبيد فى أسوأ صورها.. ومن المحتمل أن ما رآه من سوء حالة العبيد قد أثر فى فكره ومشاعره الانسانية تأثيرا شديدا ظل يلازمه طوال حياته .

منذ سنوات طويلة كان التجار .. يجلبون عشرات ومئات الآلاف من زنوج أفريقيا ليباعوا فى العالم الجديد ، ويعملون عبيدا فى حقول القطن فى الولايات الجنوبية .. وفى جرائد المدينة كان أبراهام

لينكولن يقرأ اعلانات مثل :

للبيع : مجموعة من البنات أعمارهن من (١٠) الى (١٨) سنة • وامرأة عمرها (٢٤) سنة وامرأة أخرى عمرها (٢٥) سنة معها ثلاثة أطفال أذكياء •

للشراء : أريد أن اشترى (٢٥) زنجيا من الرجال والنساء • تتراوح أعمارهم ما بين (١٨) و (٢٥) سنة وعلى استعداد أن أدفع أعلى سعر •

وكان لينكولن يتجول كثيرا فى سوق العبيـــد بنيو أورلينز •• وكان يستمع الى المفاوضات التى تتم بين البائعين والمشترين وكأنهم كانوا يتفاوضون فى بيع حصان أو أى حيوان آخر •• وكان لينـــكولن يشمئز من سماع تلك المفاوضات والمجادلات حـــول بيع وشراء الانسان •• وقد كتب ـ فيما بعد ـ يصف احساسه نحو هذه العملية الشـــنيعة : « لو كان فى مقدورى أن أوقف كل ذلك ، لأوقفته فــورا وبمنتهى العنف ! » •

وعندما عاد مرة أخرى الى الولايات الشمالية ، وجد عملا كبائع فى مخزن صغير للحاجيات فى احدى المدن الصغيرة ٠٠ وهناك عرفه الناس على حقيقته وكانوا يحترمونه ويقدرونه حق قدره ٠٠ وكان هو من جانبه على استعداد لمعاونة كل الناس ٠٠ فاذا كانت هناك امرأة فقيرة تريد بعض الأخشاب للمدفأة ، كان يقوم بقطع بعض الفروع الجافة من الاشجار ويعطيها للمرأة ٠٠ واذا غرزت عجلات احدى العربات فى الطين وأصبحت غير قادرة على الحركة ، كان هو أول المتقدمين لمعاونة السائق حتى يخرج العربة من مازقها ٠٠ واذا اخطأ فى مرة وأعطى أحد المشترين أقل مما يستحقه، فانه لاينام الليل قبل أن يصحح خطأه ويعطى للمشترى حقه ولو سار من أجل ذلك أميالا طويلة ٠

لقد اشتهر بين جميع الناس فى تلك المدينة الصغيرة بقوته وأمانته وقلبه الطيب الرحيم وأطلق عليه الناس اسم « الأمين » ٠

٩ ـ العراك

وفى تلك المدينة الصغيرة ، كانت مجموعة من الشبان ذوى الطباع الخشنة ، يرأسهم رجل قوى اسمه « جاك أرمسترونج » · وأعلن هؤلاء الشبان أن رئيسهم يستطيع أن يهزم لينكولن فى المصارعة بسهولة فائقة · ولكن أحد التجار تحدى هؤلاء الشبان وقال ان لينكولن أقوى من أرمسترونج ويستطيع أن ينتصر فى هذه المصارعة ·· ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت المدينة الصغيرة كلها تتجادل فى هذا الموضوع ·

وبذل لينكولن كل ما فى وسعه حتى لا يستدرج الى هذا العراك • ولكنه وافق فى النهاية حتى لا يفقد احترام الناس ويظنوا أنه جبن وخاف •

وفى اليوم المحدد للعراك • توجه كل الناس الى ميدان المعركة ، وكلهم كانوا شغوفين بمعرفة النتيجة وأى من الرجلين سيهزم الرجل الآخر • وكان وزن لينكولن فى ذلك الوقت نحو (١٨٠) رطـــلا (نحـــو ٨١ر٦٤٦ كجم) • وكان يتميز بذراعـــين طـويلتين وقويتين •

ومـــا أن بدأت المبـــاراة حتى تبين لجمـــاعة أرمسترونج أن لينكولن لايقل عن رئيسهم قوة ولا ذكاء •• لذلك فقد حاولوا التدخل فى العراك لصـــالح رئيسهم ، فغضب لينكولن أشد الغضب ، فهجم عـلى غريمه ورفعه بذرعيه القويتين فى الهواء وأطاح به على الأرض غير قادر على الحركة • وبعد أن انتهى لينكولن من أمر أرمسترونج ، دعا كل أفراد الجماعة للعراك معه ، وقال انه سوف يهزمهم جميعا ••

وعندئذ تحرك أرمسترونج وقام من رقدته وأمسك بيد لينكولن ورفعها قائلا أن المعركة كانت عادلة وأن لينكولن هو المنتصر .. وأن لينكولن هو أقوى الرجال فى تلك المدينة .

وهكذا حلت الصداقة محل العداوة . وأصبح لينكولن ضيفا مكرما فى أى بيت من بيوت أفراد تلك الجماعة ورئيسها . وسنرى فيما بعد أن لينكولن قد أنقذ حياة أحد أبناء جاك أرمسترونج .

١٠ ــ محاربة الهنود الحمر

ولم يمر سوى أقل من عام ، حتى أغلق صاحب المتجر الذى كان يعمل فيه لينكولن حانوته · وأصبح لينكولن بالتالى بلا عمل ·· وأصبح يقضى وقتــه فى القراءة والتحدث مع أحد المدرسين ·

ثم انضم بعد ذلك الى جماعة من الرجــال أراد حاكم ولاية الليـنـوى استخدامهم للدفاع ضـد هجوم متوقع من جانب الهنود الحمــر الذين كانوا يريدون استرداد الأرض التى باعوها من قبل ·

وعندما اجتمع هؤلاء الرجال فى ســاحة المدينــة

الصغيرة ، اختاروا على الفور لينكولن رئيسا لهم . وقد فوجىء هو بهذا الاختيار واعتبره تشريفا وتكريما له . بل اعتبره أفضل من أى تشريف أو تكريم قدم له خلال حياته التالية .

ولحسن الحظ لم يحدث أى هجـــوم من جانب الهنود الحمر . وبعد ثلاثة شهور عـاد الرجـــال الى بيوتهم دون أن يدخلوا مع الهنود الحمر فى أية معركة بل ولم ير لينكولن من الهنود الحمر سوى هندى واحد من الهنود المسالمين ، كان بعض الجنـــود قد اعتقلوه وقرروا اعدامه لولا أن تدخل لينكولن وأنقذ حياته .

١١ ـ لينكولن صاحب متجر

ولكن يبدو أن عمل لينكولن كبائع في متجـــر كانت تجربة لم تخرج بعد من حياته ٠٠ فقد اشترك لينكولن مع شـــخص يدعى « بيرى » فى شراء متجر لبيع الحاجيات ٠ ولكن لا هـــو ولا بيرى كانا يملكان كثيرا من النقود ، لذلك فقد اقترضا بعض الأمـــوال حتى يتمكنا من شراء المتجر ٠

ولكن هذه التجربة لم تحقق أى نجـــاح ، وذلك لعدة أسباب منها كثرة وجود المتاجر المماثلة فى تلك المدينة الصغيرة ، ومنها سبب رئيسى يرجع الى لينكولن

نفسه ، فقد كان لا يقبل على عمله كبائع فى هـــذا المتجر بالحماس الواجب ٠٠ كان منصرفا الى قراءة الكتب أثناء عمله بالمتجر ٠ بل وحين كان يحضر بعض الزبائن للشراء ، كانوا يجدونه جالسا فى ظل شجرة خـلف المتجر ومستغرقا فى القراءة ٠٠ وأحيانا كثيرة كان يقوم بوزن السكر أو الدقيق لأحد الزبائن بيد واحدة، أما يده الأخرى فتظل ممسكة بكتاب لا يرفع عينه عن صفحاته ٠

١٢ ـ فى قاع البرميل

وكان عدد الزبائن الذين يترددون على المتجـــر يتناقص كل يوم · لذلك فقد كان لينكولن يجد فرصة أكبر لمواصلة القراءة دون الاضطرار لقطعها حتى يلبى طلب أحد هؤلاء الزبائن ·

وفي يوم ما جاءه زبون ·· كان شخصا مهاجرا الى الغرب ومعه برميل.قديم يريد أن يبيعه حتى يواصل طريق هجرته ·· وكان لينكولن لا يريد شراء البرميل، ولكنه مع ذلك اشتراه من الرجل وأعطاه نصف دولار ثمنا لهذا البرميل القديم ·

وحين أراد لينكولن تنظيف البرميل والقاء ما به من أوراق قديمة ، دهش كثيرا عندما عثر على كتاب قديم بقاع البرميل ·· وكان كتابا فى القانون ·· كان كتابا لا يستغنى عنه المحامون ·· وكان يبدو كما لو كان يقول للينكولن : « هأنذا ·· خذنى واقرأنى ·· لقد ولدت لتكون محاميا ! » ·

وقرأ لينكولن هذا الكتاب بكل الشغف وكل التركيز ··

وفى أحد الأيام علم لينكولن أن شريكه بيرى قد فر هاربا من المدينة الى مكان مجهول حتى يتنصل من الوفاء بما عليه من ديون ·· وكان فى وسع لينكولن أن يفر هو أيضا ، أو يفعل مثلما يفعل الكثيرون من غير الأمناء ·

ولكنه طلب من الدائنين أن يمهلوه الى حين ميسرة ووعدهم بأنه سيرد اليهم أموالهم مهما اقتضى الأمر··

وهكذا كلما استطاع لينكولن أن يدخر بعضا من

النقود ، كان يدفعها كلها وفاء لهذا الدين ..

ومن الغريب أنه ظل يدفع أقساط هـذا الدين لسبع عشرة سنة متوالية .. حتى انتهى أخيرا من دفع جميع ما كان عليه من ديون .

١٣ ـ لينكولن صانع القانون

وكانت السنوات التالية من حيـــاة لينــكولن سنوات صعبة حافلة بالجهد والعمل ٠٠ فقد اكتسب محبة الناس واحترامهم ٠ وربمـــا كان نجـــاحه فى الانتخابات واحتلاله مركزا مرموقا فى حكومة الولاية يرجع أساسا الى اقتناع الفلاحين والناس البسطاء بـه وتأييدهم له ، باعتباره شخصا بسيطا مثلهم يمكنـه أن يتفهم مطالبهم وآمالهم ويستطيع أن يرفع صوتهم الى حكومة الولاية ٠٠ لقد أحبه هؤلاء الناس وســاعدوه مثلما كان يساعدهم ٠

وعندما نجح فى الانتخابات لأول مرة ، ذهب الى أحد أصدقائه من المزارعين وسأله : « هل اخترتني في الانتخابات ؟ » . فلما أجاب الصديق بالايجاب ، قال له لينكولن : « حسن .. أنا أريد الآن أن اشترى بعض الملابس اللائقة بدلا من ملابسى القديمة .. وأريد أن اقترض مائتى دولار ! » .

ولأنه كان مازال قليل الخبرة بأعمال الحكومة فلم يحاول أن يتقدم أو يتولى المناصب الرئيسية القيادية ، بل عمل فى صمت لخدمة الناس ، واكتسب أيضا محبة واحترام زملائه فى الحكومة .

وكان انتخابه لأول مرة فى سنة ١٨٣٤ يعتبر فاصلا بين مرحلتين من حياته .. فقد كان نهاية للمرحلة الفقيرة القلقة التى عاشها بين فقراء المزارعين الذين يرحلون من مكان الى آخر سعيا وراء الرزق أو ما يسد رمقهم .. كما كان بداية لمرحلة أخرى من الحياة يحتك فيها بكثير من المتعلمين والمتنورين وأصحاب الأفكار الجيدة .

وخـلال السنوات الثمانى التى قضاها لينكولن كعضو منتخب فى حكومة الولاية ، كان يدرس القانون ليل نهار . وبعد انقضاء هذه السنوات رحل الى مدينة سبرنج فيلد بولاية الليناوى . وهناك التحق بمكتب محام كبير وبدأ ممارسة مهنة المحاماة . وكان عمـره أيامئذ نحو تسع وعشرين سـنة . ولم يكن فى جيبه اكثر من سبعة دولارات ، لا تكفى حتى لتأجير غـرفة مناسبة يعيش فيها .. ولكنه مع ذلك بدأ هذه المرحلة من حياته بروح متفائلة مستبشرة ..

١٤ ـ لينكولن المحامى

وظل لينكولن يعمل بالمحاماة على مـــدى خمس وعشرين سنة متواصلة ٠٠ عرف خلالها بأنه المحامى الأمين الذى لا يتكلم الا بالحق والذى لا يصنع الا مـا يظن أنه الصواب والعدل ٠٠ وكان يساعد الناس فى حل مشاكلهم ٠ فعندما يتشاجر شخصان أو يتنازعان على شىء ما ، كان يقنعهما بحل المشاكل بطريقة وديـة بدلا من اللجوء الى المحاكم ٠٠ وكان اذا شعر بأن أحـد زبائنه لم يكن على صواب أو يطالب بشىء غير الحق ، كان يمتنع على الفور عن الدفاع عنه ٠٠ وكان لا يحصل

من الزبائن الا على أجر عادل ليس فيـــه اجحـــاف بحقوقهم ·

وعندما كان الناس يتحدثون عنـــه أو يلوكون سيرته طيلة هذه السنوات ، كانت أقوالهم لا تخـرج عن الأقوال التالية :

١ ـ ياله من شخص طويل قوى العضلات سريع الحركة غير انيق فى ملبسه أو فى ملامحه !

٢ ـ كم هو قادر على ذكر القصص الطريفة التى تسر السامع ·· وكم هو رحيم وطيب القلب !

٣ ـ انه يشعر بحزن عميق ويلزم الصمت فى بعض الأحيان !

٤ ـ انه يتطلع دائما لأية فرصة يتعلم فيهـــا شيئا جديدا !

٥ ـ كم هو مستعد دائما لمعاونة أى صديق وأى غريب ، بل وأى حيوان أعجم !

وفى تلك الأيام كان قاضى المحكمة يتنقل بمحكمته من قرية الى قرية ، ومن مدينة صغيرة الى مدينة صغيرة أخرى ٠٠ وكان المحامون ـ ومن بينهم لينكولن ـ يتتبعون هذه المحكمة أينما ذهبت أو تنقلت ٠٠ ولذلك فقد ذاع صيته واتسعت آفاق شهرته ٠٠

١٥ ـ براءة بدلا من الاعدام

وفى يوم ما ترك لينكولن كل أعماله وسافر ليواسى أرملة صديقه القديم جاك أرمسترونج بعد موته بأيام قليلة٠وهناك علم أن «داف» ابن أرمسترونج قد وقع فى مأزق خطير ٠٠ حيث وجهت اليه تهمة القتل ، وهى جريمة عقوبتها الاعدام ٠

وكانت وقائع تلك التهمة تتلخص فى أن « داف » ورجلا آخر قد شربا كثيرا من الخمر حتى سكرا ، ثم بدآ فى الشجار والعراك ، حيث وجه « داف » ضربة

قوية نحو رأس غريمه ، فسقط على الأرض ·· وبعد خمسة أيام مات الرجل ·

وبالرغم من أن لينكولن يعرف الكثير عن أسرة أرمسترونج ·· ويعرف أن الابن داف كان طائشا ·· الا أنه كان مقتنعا بأن داف مهما كان سيئا ، الا أنه لا يمكن أن يقدم على قتل انسان أو يجعل القتل أحد أهدافه ·· لذلك أصر لينكولن على الدفاع عنه وتبرئته وانقاذه من حبل المشنقة ·

وكان الشاهد الوحيد يعمل نقاشا اسمه «ألين» ·· وكان قد شهد بأنه رأى المشاجرة التى حدثت بين الرجلين ، ورأى « داف » وهو يوجه الضربة القاتلة الى رأس غريمه · وكانت شهادته على النحو التالى :

س : متى حدثت المشاجرة ؟

ج : بين الساعة العاشرة والحادية عشرة مساء ·

س : وهل كان هناك ضوء كاف يمكنك من رؤية كل تفاصيل العراك ؟

ج : كان القمر بدرا كاملا ·· وكان يتخـذ فى السماء موضعا مثل موضع الشمس فى الساعة العاشرة صباحا ·

وقدم لينكولن الى المحكمة كتابا علميا يثبت أن القمر قد غرب فى منتصف الليلة التى حـدث فيهـا العراك · وأنه لذلك يكون مائلا تماما نحو الغرب فيما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة من تلك الليلة · وبالتالى يكون القمر خافت الضوء بطريقة لا يمكن معها رؤية تفاصيل العراك بوضوح ·· وبما أن هذا الشاهد قد كذب فى موضوع ضوء القمر ، فمن المحتمل أن يكون قد كذب أيضا فى موضوع تلك الضربة القاتلة ··

وترافع لينكولن امام المحلفـين الاثنى عشر الذين سيقررون ما اذا كان داف مدانا أم بريئا ·· أوضـح لهم أنه يعرف أسرة أرمسترونج منذ مـدة طويلة ، ويعرف أنها أسرة عادية ، قد تكون قد ارتكبت أخطاء عادية مثل الأسر الأخرى ، ولكنها لم تكـن ابدا أسرة شريرة ·· وأوضح لهم أيضا أن الابن داف قد يكون

شابا متهورا أو طائشا مثل الكثيرين من قرنائه من الشباب٠٠وأن هذا الدرس الذى تلقاه فى هذه التجربة المريرة سيجعله ملتزما بسلوك أفضل بين الناس ٠٠ ولذلك فان من الظلم أن يحكم عليه بالاعدام لجريمة لم يرتكبها ٠٠

وهكذا حكمت المحكمة ببراءة داف أرمسترونج ٠٠ وعندما أطلق سراحه قال له لينكولن نصيحة غالية : « فلتذهب الآن يا داف الى بيتك ٠٠ ولتكن شابا صالحا ٠٠ واياك ان تضع نفسك مرة أخرى فى مشاكل جديدة ! » ٠

١٦ ـ مسألة العبيد

وخلال عمل لينكولن بمهنة المحاماة ٠ فانه لـــم يتخل تماما عن دوره الحكومي ٠٠ فقد اتسعت اهتماماته وشملت موضوعات كثيرة كان أهمها موضوع العبيد ٠

وكانت مســألة العبيد تشــغل بال الكثير مــن الأمريكيين فى تلك الفترة ٠ فقـــد كان المهـــاجرون يتدفقون فى أعداد كبيرة نحو الغرب ، وأخذوا يهيئون الأرض للزراعة على نطاق واسع ، وينشئون العـديد من القرى والمدن والولايات الجديدة ٠

وكان نظام استخدام العبيد مســـموحا به فى

الولايات الجنوبية ، وغير مسمـــــوح به في الولايات الشمالية .. ولكن ماذا عن الولايات الجديدة التي بدأت تنشأ في الغرب ؟ .. هل يســـمح فيها بتطبيق نظام استخدام العبيد .. أم يحرم فيها هذا النظام كما هو الحال بالنسبة للولايات الشمالية .. ؟

انقسم الناس في هذا الأمر واختلفوا .. بعض الناس يقولون نعم .. وبعضهم يقولون لا .. وآخرون يقولون ان حسم هذا الموضوع يجب أن يترك لسكان هذه الولايات الغربية الجديدة ليقرروا بأنفسهم النظام الذي يرغبون في تطبيقه .. كان الموضوع شـــائكا وعويصا ، ولكنه كان على قدر كبير من الأهمية .

وكان « ستيفن دوجلاس » يعتبر في تلك الفترة أحد القادة الكبار في الولايات المتحدة الأمريكية وكان شخصا ذكيا يتمتع بشخصية قوية وبقدرة فائقـــة على الخطابة . وكان محل اعجاب الجماهير الأمريكية . وكان دوجلاس يرغب في ترشيح نفسه ليصـــــبح رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية .. لذلك فقد كان يحاول

ارضاء سكان الولايات الجنوبية وارضاء سكان الولايات الشمالية فى نفس الوقت • ولكنه لم ينجح فى ارضاء هؤلاء ولا أولئك •

أما أبراهام لينكولن فقد كان لا يرى وجوب تحرير العبيد مرة واحدة أو الغاء هذا النظام هكذا بجرة قلم •• ولكنه كان يؤمن تماما بأن نظام العبودية نظام كريه وغير انسانى •• وبالتالى فقد كان لا يريد تطبيق هذا النظام أو السماح به فى الولايات الغربية الجديدة •• وكان يقول فى هذا الشأن :

« عندما يحكم الرجل الأبيض نفسه بنفسه •• فهذه هى الحكومة الذاتية •• ولكن عندما يريد الرجل الأبيض أن يتحكم فى غيره من الملونين فهذا هو الاستبداد والطغيان •• ولا يجب اطلاقا أن يتحكم الانسان فى أخيه الانسان دون رغبة هذا الأخير وموافقته .! » •

وهكذا بدأت معركة الحرية وتحرير الانسان من قيود العبودية • وما أن شرع لينكولن فى أول خطواته

فى تلك المعركة ، حتى قرر أن يواصل جهوده حتى النهاية . وكتب لأحد أصدقائه خطابا يقول فيه :

« انى أومن بوجود الله .. وأعرف أن الله لا يقبل الظلم ولا يرضى بأن يستعبد الانسان أخاه الانسان.. وانى أرى أن العاصفة قادمة لا محالة .. واعرف أن الله معى .. وأنا مستعد ان أبذل كل جهدى وحياتى لتحقيق الحق .. فأنا لا شىء على الاطلاق .. أما الحق والعدل فهما كل شىء ! » .

١٧ ـ لينكولن ودوجلاس

سافر لينكولن ودوجلاس الى جميع أنحاء ولاية اللينوى ، وعقدا عدة اجتماعات حضرها آلاف من الناس وفي كل اجتماع من هذه الاجتماعات كان كل منهما يخطب في جماهير الحضور لعرض أفكاره ومبادئه ومعتقداته ٠

وكانت الجماهير تصغى الى كل منهما بدهشة وانبهار ٠ فقد كان دوجلاس خطيبا بارعا مفوها ٠ كما كان لينكولن خطيبا بسيطا وقويا في نفس الوقت وكلامه يدخل الى القلب مباشرة ٠٠

وانقسم الناس حيال هــذين الخطيبين • فكان بعضهم يؤيد أفكار دوجلاس ، وبعضـــهم يؤيد أفكار لينكولن •• وربما كانت هــــذه الخطب التى ألقاها لينكولن هى التى أذاعت شهرته فى أوســع الآفاق ، كما أن الأفكار التى نادى بها فى تلك الخطب أكسبته المزيد من التأييد والاحترام •

وقد أجريت انتخابات الرئاسة ســنة ١٨٦٠•• وعندما أعلنت نتيجة هذه الانتخابات •• علت الدهشة وجه لينكولن ووجوه كل اصدقائه ومؤيديه •• لقــد أصبح ابراهام لينكولن •• ذلك المحامى الريفى البسيط الذى لم يكن معروفا منذ سنوات قليلة ، رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية •

١٨ - فى البيت الأبيض

وفى ١١ فبراير ١٨٦١ ·· غادر لينكولن بلدته سبرنيج فيلد ليبدأ رحلته الطويلة الى واشـــنطن ، مصطحبا معه زوجته وأبناءه الثلاثة الصغار ·· وقبـل أن يبدأ القطار مغادرة المحطة ، رفع لينكولن قبعتـه تحية لمودعيه من الأصدقاء والجيران ، وترقرقت فى عينيه الدموع وهو يلقى فيهم خطبة قصيرة قال فيها : « أصدقائى ·· انى مدين لهذا المكان وأهل هذا المكان بكل شيء ·· لقد عشت بينكم هنا أيها الناس الطيبون ·· عشت بينكم كل صباى وشبابى ·· وفى هذا المكان أيضـا ولد أبنائى ·· وفيه أيضـا دفن أحد أبنـائى

·· وأنا أتركـكم الآن ·· دون أن أعرف متى أعود اليكم ·· بل ودون آن اعرف ان كنت سأعود اليكم أم لا·· ولكن الله سيكون معى هناك في واشنطن وسيكون معكم أيضا فى نفس الوقت ·· فثقوا فى الله كما أثق فيه·· ولندعوه جميعا أن يلهمنا القدرة على فعل الخير والعمل الصالح ·· »·

وهكذا بدأ لينكولن عمله الصعب وهو يثق فى الله ·· وفى واشنطن تقلد منصـــب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى جو تكتنفه أصعب الظروف ·

كانت هناك سبع ولايات جنوبية أعلنت انفصالها عن الاتحاد واختارت لنفسها رئيسا آخر ·· لأن هـذه الولايات كانت تعتمد على نظام استخدام العبيد ، وهو نظام كانت تعارضه الولايات الشمالية ·

وكانت الولايات الشمالية نفسها تعانى من بعض الاضطرابات ·· وكان معنى السماح بانفصال الولايات الجنوبية أن الدولة كلها ستنهار ولن تكون هناك أمة أمريكية موحدة ·· فما العمل ؟!

كان على الرئيس لينكولن أن يحدد الاجابة على هذا السؤال .. كان عليه أن يجد حلا لكل هذه المشاكل الشائكة البالغة الصعوبة والتعقيد .. وذلك بالرغم من أنه كان قليل الخبرة بمثل هذا النوع من المشاكل المعقدة .. وبالرغم من أنه كان محاطا بمجموعة من المستشارين الضعاف .. بينهم مستشار كان يظن فى نفسه القدرة على حل كل تلك المشاكل .. وكان يرغب فى ان يترك له الرئيس حرية التصرف فى كل شىء ..

١٩ ـ وبدأت الحرب الأهلية

وتلاحقت الأحداث بسرعة شديدة ‥ كانت هناك قلعة اسمها « فورت سومتر » تقع فى احدى الولايات الجنوبية ‥ وكان يشغلها جنود تابعون للولايات الشمالية ‥ وطلب جنود الجنوب من جنود الشمال ان يسلموا القلعة لهم ويرحلوا ‥

رفض جنود الشمال هذا الطلب ، فهجم جنود الجنوب على القلعة لمدة يومين متواصلين حتى سقطت القلعة فى أيديهم ‥ وهكذا بدأت الحرب الأهليه الكبرى بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية ٠

واستنفر الرئيس لينكولن جيش الشمال ، كما أعد
الولايات الجنوبية جيشها وجهزته للحرب .. وسرع
ما نشبت المعارك بين الفريقين .

استمرت هذه الحرب الأهلية الكبرى على مــد
سنوات أربع طويلة .. سقط فيها قتلى مئات الآلا
من شباب الفريقين . ولم يعد هناك سوى الحزن العمي
والمعاناة الشديدة وأخبار الموت فى كل هــذه الولايا
المتحاربة .

وازداد الأمر سوءا حين انقسمت الأسر على نفس
وأصبح بعض أفراد الأسرة الواحدة يؤيدون الشــما
وبعضهم يؤيدون الجنوب وكان كل فريق منهما ينض
الى الجيش الذى يؤيده .. وهكذا أصــــبحت الاس
الواحدة تحارب بعضها بعضا ، كما أصبح الأخ يحار
أخاه .. !

وكانت الولايات الشمالية سيئة الحظ فى بدا
الحرب ، خصوصا بالنسبة لسوء اختيار الضباط الذ
كانوا يتولون قيادة الوحدات المحاربة . كما كان الجنر

في جيش الجنوب يحاربون بشجاعة وحماس زائد ٠٠ ودارت المعارك الحربية في الشمال وفي الجنوب وفي الغرب ٠٠ وكان كل من الفريقين يتعرض للهزيمـــه أو يحوز النصر حسب أحوال كل معركة ٠٠ وجاء وقت أوشك فيه جيش الجنوب أن يصبح قريبا من واشنطن نفسها ، ولكنه سرعان ما أجبر على التقهقر ٠٠ وهكذا استمرت المعارك تدور وتشتد بين الجنوب والشمال حتى أصبح الكثيرون يظنونها حربا بلا نهاية ٠٠ !

وكان الرئيس لينكولن يدير الأمور من مقره في البيت الأبيض وقلبه مفعم بالحزن العميق ٠٠ ولكنــه كان ثابت الجأش ، يثق تماما في أن السلام سـيعود مرة أخرى الى الولايات الأمريكية ، وستعود الولايات المتحدة الأمريكية دولة موحدة ٠٠

كان كثيرون يشتكون من تصرفاته وأوامـــره ، ولكنه كان يستمع اليهم بهدوء وصدر رحب ٠٠ وكان البعض يقفون ضده علنا ولكنه لم يتخذ ضدهم أي اجراء غاضب ٠٠ كان قلبه الكبير يتسع لكل تلك المتـاعب

والمشاق ·· وازداد تمسكه بأن تصل الأمور الى نهايتها المحتومة ، وهى اقرار السلام وعودة الأمور الى نطاقها السليم ·

ورويدا رويدا بدأ الناس البسطاء العاديون فى كل الولايات يشعرون بأن الرئيس الجالس فى البيت الأبيض رئيس عظيم ، ورجل من أعظم الرجال الأمريكيين المخلصين ·

ولكن لينكولن كان له عيب خطير وحيد ، كان يسبب قلقا لدى معظم ضباط الجيش ·· فقد كان يحب الناس حبا جما ، وكان يقدر الضعف الانسانى الذى قد يصيب أى واحد من البشر ، ولذلك فقد كان يعفو عن الأخطاء التى قد يرتكبها أى انسان ويحاول فى الوقت نفسه أن يعيد هذا الانسان المخطىء الى سواء السبيل ·

كان لينكولن يعارض مثلا فى منح وحدات الجيش حق انشاء محاكم ميدانية لمحاكمة الجنود الذين يفرون من المعركة أو الذين يضبطون نائمين أثناء نوبتهم فى

الحراسة واصدار الحكم باعدامهم • وكان يقول دائما يجب العفو عنهم واعطائهم فرصة أخرى •• ولكـــن ضباط الجيش كانوا لا يفضلون مثل هـــذه الطريقـة الرحيمة فى معالجة مثل هذه الاخطاء العسكرية التى كانوا يعتبرونها من الجرائم الخطيرة التى تســـتحق عقوبة الاعدام •

كذلك فقد كان يستجيب لرغبة أم تذرف الدموع مطالبة بالعفو عن ابنها •• أو يستجيب لصيحة غـــلام صغير يتوسل مطالبا بالعفو عن أبيه •• كانت مثـــل هذه الأشياء تمس شغاف قلبه ••

٢٠ ـ لينكولن والجندى

والقصة التالية تعتبر نموذجا لما سماه البعض « ضعف الرئيس » .. ففى أحد الأيام وصل ضابط برتبة كابتن ومعه بعض الجنود الى البيت الأبيض ليعرض على الرئيس موضوع أحد الجنود الشبان الذى ضبط نائما اثناء نوبة الحراسة وقرر قادة الوحدة العسكرية التى يتبعها هذا الجندى الحكم باعدامه رميا بالرصاص .

واستعطف الكابتن الرئيس لكى يتدخل فى الأمر لانقاذ هذا الجندى من الاعدام ..

وبعد بضع ساعات قليلة ، اندهش هذا الجندى

المحبوس تحت الحراسة فى احدى الخيام حين رأى الرئيس أمامه · وكان الرئيس فى الوقت نفسه يعتبر قائدا أعلى لجيش الولايات الشمالية ·

سأل الرئيس الجندى عن بيته واسرته ومزرعة الأسرة ·· وشاهد صورة الأم التى كان يحتفظ بها الجندى · وقال له الرئيس :

ـ لقد نشأت أنا نفسى فى مزرعة مثل مزرعة أسرتك · واذا قررت أن أعفو عنك وأطلق سراحك ·· فان عليك أن تدفع ثمنا غاليا نظير ذلك !

فتهلل وجه الجندى بالبشر والفرح وقال :

ـ انى متأكد ياسيدى أن أبى سيفرح لذلك وأنه على استعداد أن يبيع جزءا من أرض المزرعة ليدفع الثمن المطلوب ··

وقال الرئيس :

ـ لا ·· ليس هذا كافيا ·· ان عليك وحدك أن تسدد هذا الثمن ·· وهو أن تثبت أنك جندى شجاع مخلص لجيش الاتحاد !

ووضع الرئيس يده على رأس الجندى حين أقسم الجندى بأنه سيكون مخلصا للجيش وسيكون محلا لثقة الرئيس .. وسيحارب بكل ما يملكه من شجاعة .

ودفع هذا الجندى الثمن فيما بعد .. فقد أثبت شجاعة فائقة فى الحرب ، وبينما كانت المعركة مع العدو على أشدها ، قفز هذا الجندى الى النهر لينقذ بعض الجرحى من زملائه الجنود .. وظل يقوم بهذه العملية الى أن أصيب برصاص العدو اصابة بالغة .. وحين كان يحتضر ويلفظ آخر أنفاسه .. كان يشكر الرئيس الذى أتاح له هذه الفرصة لكى يستشهد بشجاعة فى سبيل وطنه !

٢١ ـ تحرير العبيد

كان أبراهام لينكولن يكره نظام العبودية الى أقصى حد . ولكنه كان يدرك عدم امكان اطلاق حريات كافة العبيد دفعة واحدة ، ودون أن يتم تعويض ملاك العبيد .. وكان يعرف جيدا أن مثل هذا القرار سيغضب الولايات الجنوبية .

وكان الهدف الأول أمامه هو اعادة توحيد الأمة وعدم تجزئة الولايات المتحدة الأمريكية ، وكتب فى هذا الشأن يقول : « ان أهم أهداف هذه الحرب الأهلية هو اعادة توحيد الأمة .. ولو كان في استطاعتى أن أحقق

هذا الهدف دون تحرير العبيد لفعلت ·· ولو كان فى استطاعتى أن أحقق هـذا الهدف مع تحرير العبيـد فى نفس الوقت لفعلت ذلك على الفور ·· وكل ما سوف أفعله نحو العبيد والملونين بصفة عامة هو فى صالح الاتحاد » ·

وبينما كانت الحرب مستمرة كان لينكولن يقول دائما ان من المستحيل ان تكون هناك دولة موحـدة نصفها من العبيد ونصفها الآخر من الأحرار ·· ويجب أن يلغى نظام العبودية ··

وكان عليه أن يتخذ قرارا شجاعا ··

فبينما كانت الحرب دائرة ·· وقـع أبراهـام لينكولن على وثيقة فى غاية الأهمية · أعلن فيها تحرير جميع العبيد فى الولايات المنفصلة التى أعلنت الحرب على الاتحاد ·· وكان معنى هذا القرار هو اعلان تحرير نحو ثلاثة أو أربعة ملايين من العبيد عند انتهاء الحرب لصالح الاتحاد ·

٢٢ ـ خطبة جتيسبورج

وقعت أشرس معارك هذه الحـــرب فى منطقـــة جتيسبورج .. ففى هذه المعركة اندحر جيش الجنوب وانهزم هزيمة ساحقة وانسحبت فلولـــه عـــائدة الى الولايات الجنوبية .. وقد سقط فى هذه المعركة عـــدة آلاف من الجنود والضباط من الجيشين المتحاربين .. وقد دفن هؤلاء القتلى جميعا حيث سقطوا فى ميـــدان المعركة .

وقد نظم عقد اجتماع كبير فى نفس المكان الذى دارت فيه تلك المعركة الكبيرة ، وذلك لتكريم الجنود

الشجعان الذين قتلوا من الجانبين المتحاربين . وحضر الاجتماع عدة آلاف من الناس من كافة المناطق المجاورة وذلك للاستماع الى الخطب التى سوف يلقيها « مستر ايفريت » ممثل الجنوب ، وأبراهام لينكــولن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

وكان « مستر ايفريت » عميدا لاحدى الكليات .. وعلى علم واسع ، وخبرة لا حد لها نتيجة اسفاره الى الخارج مرات عديدة . وبالاضافة الى ذلك ، فقد كان متمكنا من فن الخطابة وله قدرة فائقة على الاقناع .

ووقف « مستر ايفريت » وألقى خطبة جـــاوزت الساعتين .

ولم يكن أمام لينكــولن كثير من الوقت ليعـــد خطبته .. لدرجة انه انتهى من كتابة هذه الخطبة قبل أن يشرع فى التوجه الى جتيسبورج بدقائق قليلة .

وقف لينكولن أمام كل هذا الجمع الحـــافل بجسمه الطويل النحيف ، ووجهه الذى ترتسم عليه كل ملامح الحزن بسبب هذه الحرب ..

ظل صامتا لحظة . ثم بدأ يتكلم كما لو كان لا يرى كل هذا الجمهور أمامه .. تكلم ببطء ولكن بصوت مرتفع لمدة ثلاث دقائق ثم جلس على مقعده !

وعندئذ التفت أحد الرجال الجالسين جوار « مستر ايفريت » وقال له : « يبدو أنه فشل في الرد على خطبتك .. انى آسف له أشد الأسف » .

ولكن لينكولن قدم اليهم الخطبة مكتوبة .. وما أن قرأوها حتى تبين لهم وتبين لجمهور الحاضرين نبل المعاني التى تتضمنها هذه الخطبة .

كانت مكتوبة بلغة انجليزية رفيعة المستوى تحفل بمعاني النبل والعفو عند المقدرة .. وقد اعتبرت هذه الخطبة واحدة من أعظم الخطب السياسية والوطنية فى العالم . وقد اشتهرت خاتمتها التى تقول :

« ستشهد هذه الأمة برعاية الله مولدا جديدا للحرية .. وان الحكومة التى أوجدها الشعب لصالح الشعب لن تختفى من على وجه الأرض ! » .

٢٣ ـ نهاية الحرب الأهلية

وفى سنة ١٨٦٤ أعيد انتخاب لنكولن مرة ثانية رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية .. وكان له اعداء كثيرون كانوا يعملون على اسقاطه .. ولكن الأغلبية من الناس العاديين كانوا يثقون فيه وفى قدرته على قيادة الاتحاد فى هذا الوقت العصيب .

وفى بداية فترة رئاسته الثانية ، كانت هناك بوادر تؤكد قرب انتهاء الحرب . فقد أصبح جيش الشمال أكثر قوة ومقدرة ، كما أصبح قادته أفضل مما كانوا عليه من قبل .. كذلك فقد بدأ جيش الجنوب

يتقهقر ببطء بعد أن منى بهزائم متوالية ٠

وعندما أدرك لينكولن أن الحرب أصبحت وشيكة الانتهاء بنصر حاسم لجيش الشمال ، بدأ يضع خطط ما بعد الحرب ٠ كان عليه أن يقرر كيفية اعادة الولايات الجنوبية المهزومة مرة أخرى الى الاتحاد ٠٠ وكان عليه أن يقرر كيفية اعادة السلام بين الشمال والجنوب ٠٠ وبين هؤلاء الذين كانوا يكرهون بعضهم بعضا ويقتلون بعضهم بعضا ٠٠ وكان عليه أن يزيل كل تلك الكراهية ليحل محلها الوفاق والوئام ٠٠ ليعيش الجميع كأمة واحدة في دولة واحدة ٠٠

٢٤ ـ الموت

ولكن كانت هناك تيارات لا تريد لكل تلك الأحلام أن تتحقق ، ولم تترك بالتالى فرصة للرئيس أن يحقق آماله وأحلامه لصالح الأمة . وكان هناك شاب جنوبى يدعى « جون بوث » .. كان يكره الشماليين كلهم بما فيهم الرئيس ، وقد وضع هذا الشاب خطة لقتل الرئيس منذ مدة .. ولكن الانتصارات الحاسمة التى حققها الشماليون جعلت هذا الشاب يعجل بتنفيذ خطته .

وفى مساء ١٤ ابريل ١٨٦٥ . ذهب الرئيس ابراهام لينكولن ومعه زوجته الى أحد المسارح فى

واشنطن . وكان « جون بوث » مستعدا لارتكاب جريمته وأعد جميع الخطوات بعناية ودقة .

وتسلل بوث بهدوء الى المقصورة التى يجلس بها الرئيس وحرمه . وصوب مسدسه الى رأس الرئيس من جهة الخلف ، وأطلق النار .. ثم ضرب بسينه أحد الرجال الذين اسرعوا لمحاولة القبض عليه ، ولكنــــه استطاع أن يفلت منهم ، ثم قفز الى خشبة المسرح بين الممثلين ، وانطلق الى حصان كان ينتظره عند الباب الخلفى للمسرح ..

ونقل الرئيس لينكـــولن الى بيت قـــريب عبر الشارع ، وأسرع اليه الأطباء لاسعافه .. ولكنه لفظ آخر أنفاسه فى صباح اليوم التالى ..

ولا يمكن وصف مشاعر الناس فى كل الولايات المتحدة الأمريكية حين وصلتهم أنبـاء مصرع رئيسهم المحبوب .. لقد بكاه الرجـــال بالدمـــوع .. وحتى الجنوبيين انفسهم حزنوا عليه حزنا شديدا لأنهم ادركوا أنهم قد فقدوا صديقا ذا قلب رحيم .

ونقلت جثته فى قطار حملها الى مدينته سبرنـج فيلد بولاية الليتوى ٠٠ وفى كل ولاية وكل مدينـــة كبيرة أو صغيرة وفى كل قرية وقف الناس صـــامتين حدادا وحزنا واحتراما لهذا الرجل العظيم ٠٠ الذى بدأ حياته فى كوخ فقير مشيد بجذوع الاشجار ٠٠ وانتهت حياته وهـــو يعيش فى البيت الأبيض ٠٠ وما زالت ذكراه موضع الاحترام والتبجيل لدى الشعب الامريكى وفى جميع الولايات المتحدة الأمريكية ٠



اطلاق الرصاص على لينكولن .

مدام کوری

ولدت « ماريا سكلودوفسكا » فى مدينة وارسو عاصمة بولندا فى سنة ١٨٦٧ · وكان أبوها يعمل مدرسا فى احدى مدارس البنين · وكانت أمها ناظرة لاحدى مدارس البنات ·

وكان هذان الوالدان من طراز خاص · ولحسن حظ أبنائهما أنهم نشأوا تحت رعاية هذين الأبوين ·· فى بيت يملؤه الحب العائلى وحب الكتب والدراسة ·

كانت الأسرة بولندية ·· ونشأت ماريا منذ طفولتها على حب وطنها بولندا ·· وكانت مثل هذه المشاعر الوطنية محرمة على البولنديين فى ذلك الزمن ·· لأن روسيا كانت تحتل آنئذ جزءا كبيرا من الأراضى البولندية ، وكان قيصر روسيا يعامل البولنديين بمنتهى العنف والقهر ، وأصدر أوامره بأن تحل اللغة الروسية محل اللغة البولندية · وحرم على المدرسين تعليم اللغة



ماری کوری

البولندية فى المدارس كما حرم عليهم تدريس تـــاريخ بولندا ٠

وظلت ماريا طوال عمرها تذكر تلك القصة التى حدثت فى الفصل المدرسى اثناء طفولتها ٠٠

١ ـ حين ظهر الخطر فى حجرة الدراسة

كانت البنات الصغيرات جالسات على مقاعدهــن بحجرة الدراسة ، ينصتن بشغف الى درس فى تاريخ بولندا ، يلقيه عليهن المدرس باللغة البولندية · وكانت السلطات الروسية قد حرمت تدريس هذا التاريخ وتلك اللغة ·

وفجأة دق الجرس ·· دقتين طـــويلتين أعقبتهما دقتان قصيرتان ·· وكانت هذه هى الاشارة المتفق عليها ·· أن يدق حارس بوابة المدرسة الجرس بتلك الطريقة لينبه المدرسين بأن هناك شخصا قادما فى طريقـــه الى المدرسة ·

وبسرعة شـــديدة جمعت كتب التاريخ الخطرة وأخفيت في مكان آمن ، وأخرجت البنات أدوات الخياطة، وتظاهرن بأنهن يتعلمن طرق الخياطة الصحيحة ·

وفتح باب حجرة الدراســة ·· ودخـــل موظف حكومي كبير فخور بنفسه ويمشي بخيلاء بين صـفوف المقاعد ·· وطلب الموظف أن تتقدم واحدة من البنات الصغيرات لتجيب عن بعض أسئلة يريد القاءها ·

عندئذ تقدمت ماريا وأعلنت استعدادها للاجابة ، برغم أنها كانت أصغر بنات الفصل سنا ، ويقل عمرها بنحو سنتين عن عمر أية بنت أخرى · كما كانت أكثر البنات اجادة للغة الروسية ·

قال الموظف بصوت مرتفع :

ــ رددى صلاتك ··

فرددت ماريا صلاة قصيرة باللغـــة الروسية ·· وواصل الموظف الكبير أسئلته للبنت الصغيرة :

ــ والآن ·· ما اسم قيصر روسيا المقدسة ·· ومن

هم أعضاء عائلة القيصر ·· وما هى ألقابهم ·· ومن الذى يحكم هذه البلاد الآن ·· ؟!

وأجابت ماريا على كل هذه الأسئلة بإجابات سريعة وصحيحة ·· جعلت الموظف الكبير يغادر حجرة الدراسة راضيا مسرورا ·

وعندئذ ناداها المدرس :

ـ تعالى ياصغيرتى العزيزة ··

فتقدمت ماريا الى المدرس الذى ربت على ظهرها وقبلها ·· فانهمرت الدموع من عينيها ·· !

٢ ـ طفولتها وصباها

وحين بلغت ماريا العاشرة من عمرها ، ماتت أمها الحنون ، فكانت صدمة شديدة وقعت عليها وعلى الأسرة كلها ٠٠ الأب ٠٠ والأختين ٠٠ والأخ الصغير ٠

وبذلت الأخت الكبرى « برونيا » قصارى جهدها لتحل محل الأم فى خدمة الاسرة ورعايتها واحاطتها بالحب والحنان المفتقد بموت الأم ٠ ومع ذلك فقد امتلأ قلب ماريا بالحزن العميق لموت أمها وموت احدى أخواتها من قبل ٠٠ ولم تفهم من معنى الموت فى تلك السن المبكرة الا أنه حادث محزن رهيب يخطف أحبابها ٠

ودفنت ماريا الصغيرة جميع هـــذه الأحزان في الانغماس في دروسها ·· وكانت تتميز بميزتين ظهرتا بشكل واضـــح لكل أعضـــاء أسرتها ولكل مدرسيهـــا وزملائها فى المدرسة ·

الميزة الأولى أنها كانت تفهم جميع دروسها بمنتهى السهولة ، وكانت تتمتع بذاكرة قوية جدا ، فبمجرد قراءة قصيدة من الشعر مرتين فقط ، كانت القصيـــدة مهما كانت طويلة ، تنطبع فى ذاكرتها بحيث تتمكن من تلاوتها غيبا بعد ذلك ، دون أن ترتكب غلطة واحدة · لدرجة أن بعض زميلاتها فى المدرسة كن يعتقدن أنهـــا كانت تحفظ كل هذه القصائد سرا ·

والميزة الثانية أنها حين كانت تنغمس فى قراءة أحد الكتب ، كانت تنصرف بكل كيانها لمتابعة القراءة فى هذا الكتاب ، ولا تشعر بأى شخص أو شىء آخـــر جوارها ، بل ولا تشعر أيضا بأية ضجة بجانبها مهما كانت مرتفعة ··

وفى احدى المرات ، بينما كانت ماريا منهمكة فى

قراءة أحد الكتب ، وهى جالسة الى منضـــدة كبيـرة بالبيت ، كانت هناك ضجة كبيرة يصنعها اخوتها الذين كانوا يلعبون ويصيحون بأصوات عالية · ومع ذلك فلم ترفع ماريا عينيها عن صفحات الكتاب لحظة واحدة وكأنها لا تسمع هذه الأصوات على الاطلاق ·

وأرادوا أن يعاكسوها معاكسة بريئة ، فأحاطوها بكراسى البيت من كل جانب ·· على يمينهـــا وعـــلى يسارها وفوق رأسها ·· كل هذا وهى لا تدرى شيئا عما يصنعونه حولها بسبب شدة انهماكها فى القــراءة وانصرافها تماما عن كل ما حولها ·· وظل الوضع على ذلك حتى انتهت ماريا من القراءة وطوت الكتاب وقامت من مقعدها ·· وفجأة : بوم ! ·· ارتطمت رأسهـــا بالكراسى ، وسقطت كل كومـــة الكراسى التى كانت تحيط بها ·· فانفجر الجميع ضاحكين فيما عداها ··

وحين بلغت سن الســابعة عشرة ·· كان أبوها لا يكسب من مهنته ما يفى بتكاليف الأسرة على نحو طيب معقول ·· لذلك فقد اضطرت ماريا أن تقوم باعطـــاء

الدروس الخصوصية لتلميذات المـــدارس لكى تكسب ما تساعد به أسرتها ٠٠

ولم يكن هذا العمل سهلا ولا هينا ٠٠ فقد كان عليهـــا فى معظم الأحيـــان أن تذهب الى بيوت تلك التلميذات فى مختلف أنحاء وارسو ٠٠ مخترقة الكثير من الشوارع برغم البرد الشديد أو هطـــول الثلج أو المطر ٠٠ وفى بعض الأحيان كانت تتعرض للمعـــاملة الجافة من جانب بعض الامهات الثريات ٠٠ فقد كان بعضهن يقلن لاحدى خادمات المنزل : « قولى للآنســـة ماريا سكلودوفسكا أن تنتظر ٠٠ فابنتى ستقابلها بعد نحو ربع ساعة ! » ٠٠ كما كانت بعض الأمهات تنسى أن تمنحها أجرها الشهرى ، وتجعلها تنتظر هذه النقود التى تحتاجها الاسرة أشد الاحتياج ٠

٣ ـ الجامعة العائمة !

وبعد أن أنهت ماريا دراستها المدرسية ، أرادت أن تواصل تعليمها فى « الجامعة العائمة » .. وهى جامعة على شكل تنظيم سرى ، مكونة من فريق كبير من الشبان والشابات الذين كانوا يرغبون فى مواصلة التعليم العالى بعد انتهاء التعليم المدرسى .

وكان هؤلاء الشباب يلتقون سرا فى أماكن مختلفة وفى أوقات مختلفة للاستماع الى المحاضرات التى يلقيها عليهم الأساتذة المتخصصون . وكانت مثل هذه الاجتماعات محرمة تحريما قاطعا بأوامر من السلطات

الروسية ، بحيث اذا تم ضبط أحد هـــذه الاجتماعات الدراسية ، كان يوضع الجميع في السجن ٠٠ الطلبة والمدرسون معا ٠

وكان من أعظم أهداف هذه الجامعة العـــائمة أن الطلبة والطالبات الذين كانوا يتعلمون فيها ، كان عليهم فى نفس الوقت أن يضـــموا اليهم مزيدا من الطلبـــة والطالبات الآخرين ، ويقومون بتعليمهـــم ما تلقوه من دروس ومحاضرات ٠ وبذلك تتسع القاعدة العريضـــة من الشباب الراغب فى خدمة مستقبل وطنه بولندا ٠٠

وكانت ماريا تحب أختهـــا الكبرى « برونيـــا » وتحترمها احتراما شديدا ٠٠ وتتمنى من أعماقها أن تعاون هذه الأخت الحنون فى تحقيق أملها الكبير ، وهو أن تسافر الى باريس لتدرس الطب وتصبح دكتورة لتضع نفسها فى خدمة الشعب البولندى ٠

ولكى تساعد ماريا أختها فى تحقيق هذا الأمل ، وضعت خطة تتسم بالذكاء ٠٠ وحتى يتم تنفيذ هـــذه الخطة بنجاح ، أجلت ماريا البدء فى تحقيق طموحهـــا

الشخصى ، وهى أن تـذهب هى الأخـــرى الى باريس
لتكملة تعليمها العالى ٠

٤ ـ ماريا وأختها برونيا

وفى يوم ما ، قالت ماريا لأختها :

ـ برونيا ٠٠ لقد فكرت كثيرا فى أمرك ٠٠ وفكر أبى معى أيضا ٠٠ واعتقد أنى وجـــدت لك طريقـــة تستطيعين بها تحقيق أملك !

فقالت الأخت فى دهشة :

ـ طريقة ؟ ٠٠ أية طريقة تلك ؟!

ـ قولى لى أولا ٠٠ اذا ســـافرت الى باريس ٠٠ فكم شهرا تستطيعين أن تعتمدى على ما ادخرتـــه من نقود ٠٠ ؟!

ـ لقد ادخرت قيمة أجرة السفر الى باريس ·· ومبلغا آخر يكفينى لمدة سنة ·· ولكنــك تعلمين ان دراسة الطب تستغرق خمس سنوات كاملة ··

ـ نعم يابرونيا ·· انى أعرف ذلك · ولهذا فاننا نستطيع أن نتعاون معا ليساعد كل منا الشخص الآخر بالتناوب ·· اننا اذا لم نعمل معا ، فلن نستطيع ، لا أنا ولا أنت . أن نحقق أهدافنا وطموحاتنا ·· بل ولن نستطيع حتى أن نغـادر وارسـو ·· أما اذا اقتنعت بخطتى فانك تستطيعين أن تسافرى الى باريس فى هذا الخريف !

فصاحت برونيا مندهشة :

ـ ماريا ·· هل جننت ·· ؟!

فأجابت ماريا بثقة :

ـ الأمر بسيط يا برونيا ·· ستذهبين الى باريس ·· وتبدئين دراستك ·· وقبل أن تنتهى نقودك ، سأكون أنا قد دبرت لك بعض النقـــود وسيقوم أبى

أيضا بتدبير مبلغ آخر ·· وسنقوم بارسال هذه النقود اليك فى باريس لمواصلة دراستك ·· وقد تعاهدت مع أبى على أن نرسل لك ما يمكنك من مواصلة الدراسة بين حين وآخر ·· وبعد أن تنتهى من دراسة الطب وتصبحين طبيبة ·· سيحل دورى ·· وسأذهب أنا الى باريس لأبدأ دراستى ·· على أن تقومى انت بارسال النقود التى ستساعدنى على مواصلة الدراسة !

واغرورقت عينا برونيا بالدموع عند سماعها هذا العرض الكريم من أختها ·· ولكنها سألتها :

ــ ولكن من أين ستحصلين على هذه النقود التى ستساعديننى بها ، والتى يمكنك أيضا أن تدخرى جزءا منها لنفسك ··

فقالت ماريا ببساطة :

ــ سأعمل مربية أطفال لدى احدى العائلات ·· وبذلك سأوفر تكاليف الطعام والمأوى ·· وأستطيع أن احتفظ بكل أجرى ·· واعتقد أن ذلك يكفى لتنفيذ خطتنا ··

ـ ولكن لمــاذا أذهب أنا الى باريس أولا ؟ ٠٠ يمكنك أن تذهبي أنت في البداية وسأقوم أنا بمساعدتك طبقا لهذه الخطة ٠٠ !

ـ لا يا برونيا ٠٠ انك الآن فى العشرين من عمرك ٠٠ أما أنا فمازلت في السابعة عشرة ٠٠ وأنا على يقين من أنك عندما تصبحين طبيبة غنية ٠٠ فانــك ســوف تغرقيننى فى الذهب ٠٠ !

٥ ـ مربية الأطفال

وهكذا سافرت برونيا الى باريس لتبدأ دراسة الطب في خريف سنة ١٨٨٥ ·· وفى نفس الوقت تقدمت ماريا الى أحد مكاتب التوظيف والتشغيل لتبحث عن وظيفة « مربية أطفال » · وسالتها احدى موظفات المكتب عن دراستها ، والشهادات التى حصلت عليها ، واللغات التى تستطيع التحدث بها ، والوظيفة التى ترغب فى الالتحاق بها ·· ثم عادت ماريا بعد ذلك الى بيتها · وأخذت تنتظر ·

وبعد شهور قليلة ، حصلت ماريا على وظيفة مربية

أطفال فى أحد البيوت الكبيرة فى منطقة ريفية تبعد عن مدينة وارسو بنحو ستين ميلا (٩٦٫٥ كم) . وفى هذا البيت بدأت ماريا حياة جديدة حيث بدأت عملها فى رعاية فتاة صغيرة عمرها نحو عشر سنوات .

وبالرغم من أن عملها الجديد كان يستغرق معظم جهدها ووقتها ، الا أنها لم تنقطع عن قراءة الكتب .

وخلال اقامتها فى هذا البيت ، حدثت واقعتان لا بد من الاشارة اليهما .. أما الواقعة الأولى فهى أن ماريا ، برغم كل المشاغل والواجبات الملقاة على عاتقها ، الا أنها نذرت من وقتها ساعتين كل يوم كانت تقوم فيهما بتعليم مجموعة من الأطفال الفقراء من أبناء أهالى تلك المنطقة الريفية ، مبادىء قراءة وكتابة اللغة البولندية .

وكان هؤلاء الأطفال من الصبيان والبنات الذين يتراوح عددهم بين عشرة وثمانية عشر طفلا .. وكانوا فقراء جدا ، لا يعرفون النظافة ، ولا يتمتعون بالذكاء . ولكنهم كانوا يرغبون فعلا فى التعلم ..

وكانت ماريا تؤدى هذا العمل الاضافى بقدر كبير من المتعة والسعادة ، خصوصا عندما كان آراء وأمهات هؤلاء الأطفال يعترفون بفضلها العظيم فى تعليم أبنائهم اللغة البولندية · وكادت ماريا آن تنسى تماما أن الشرطة لو علمت بأمر مدرستها الصغيرة ، وقيامها بتعليم الأطفال تلك اللغة الممنوعة المحرمة ، لكان مصيرها السجن والنفى الى خارج بولندا ··

أما الواقعة الثانية ، فسوف نذكرها فيما يلى ··

٦ ـ قصة حب

كان الابن الأكبر للاسرة التى تعمـــل ماريا فى بيتها ، شابا يتلقى تعليمه فى وارسو ٠٠ وفى الاجازة المدرسية ، عاد الى بيت الأسرة ، فوجد فى البيت شابة صغيرة جميلة تعمل مربية لأخته ٠٠

رآها أجمل وأفضل وأذكى من أية فتاة اخرى رآها من قبل ٠٠ فهى تستطيع أن ترقص فى رشاقة مجموعة من الرقصات الشعبية البولندية ٠٠ وتستطيع أن تلعب لعبات ذكية عديدة ٠٠ وتستطيـــع أن تقول الشعـــر بسهولة وعذوبة ٠٠ وتتمتع بذوق رفيع وأخلاق عالية ٠

وقع الشابان فى الحب ·· وأراد الابن الأكبر أن يتوج حبه بالزواج من هذه الفتاة العظيمة ·· وذهب الى والديه ليستأذنهما فى هذا الزواج ··

انفجر الأب غاضبا · أما الأم فقد أغمى عليها ··!

كيف يتزوج ابنهما العزيز من مثل هــذه الفتاة التى لا تملك شيئا على الاطلاق ·· فتاة فقيرة اضطرت أن تعمل كمربية أطفال فى بيتهم بسبب فقرها وحاجتها الى المال ··

ولم يهتم الوالدان اطلاقا بأن الفتاة جيمة أو ذكية أو من أسرة طيبة ، كما لم يهتما بأن الفتاة تتمتع فعلا بأخلاق حميدة ·· كان اهتمامهما منصبا على استحالة أن يتزوج ابنهما العزيز من فتاة تعمل كمربية أطفال ·

وكانت شخصية الابن ضعيفة فرضــخ الى قرار والديه بعدم الموافقة على زواجه ·· واضطر الى أن يصرف النظر عن حبه والى تغيير رأيه ·· وكانت هذه الصدمة جرحا عميقا لمشاعرها ·

وفى تلك الفترة عرفت ماريا طعـــم الحـــزن ·· وازدادت أحزانها أكثر حين علمت أن أخاها الأصغر قد غادر وارسو دون أن يكمل تعليمه المدرسى ·· وفى أحد الخطابات التى أرسلتها الى أخيها لتستحثه عـلى العودة الى وارسو ليتم تعليمه ، نقرأ هذه السطور .

« لقد فقدت الأمل فى أن أكون شيئا فى حيـاتى المستقبلة ·· وكل أملى منحصر الآن فيك أنت وفى أختى برونيا ·· وسأبذل كل جهدى لكى أساعدكما فى بناء المستقبل ·· » ·

وواصلت عملها كمربية أطفال لتتمكن من ارسال نصف أجرها الشهرى الى أختها التى تتعلم فى باريس ·· ولتساعد أيضا أخاها لكى يواصل تعليمه ·

٧ ـ العودة الى وارسو

وعملت ماريا كمربية أطفال لمـــدة ثلاث سنوات متوالية ٠٠ وكانت سنوات طويلة بالنسبة لها ، لأنها كانت تشعر وكأنها فقدت الامل فى مستقبلها ٠ ولكن بعض الاحداث الصغيرة التى حدثت فى كل من وارسو وباريس غيرت مجرى حياتها ٠

ترك أبوها مهنة التدريس التى كانت تدر عليـه دخلا متواضعا ، والتحق بوظيفة أخرى تدر عليه دخلا أكبر ٠ وأصبح بالتالى قادرا على ارسال مبلغ أكبـــر لابنته التى تتعلم الطب فى باريس ، والتى أوشـــكت

الآن على الانتهاء من دراستها التى استمرت خمس سنوات ·

وغادرت ماريا المنطقة الريفية التى كانت تعمل فيها كمربية أطفال، وعادت لتعيش مع أبيها فى وارسو· والتحقت على الفور « بالجامعة العائمة » وبدأت دراستها « السرية » فى هذه الجامعة لعلوم الطبيعة ·

وحين كانت تجرى التجارب العلمية فى تلك الدراسة السرية ، شعرت ماريا بأن المستقبل قد بدأ يتفتح أمامها ·· وإنها عثرت أخيرا على الخيط الذى يؤدى الى بداية طريقها فى بحار العلم الواسعة ·

وفى يوم ما استلمت خطابا مرسلا من أختها برونيا ·· وكان الخطاب يحمل أخبارا سعيدة مفرحة · لقد تزوجت الأخت برونيا ، وأصبحت لا تحتاج أية نقود من ماريا أو من أبيها ·· وبالاضافة الى ذلك فان برونيا تدعوها للقدوم الى باريس لكى تبدأ دراستها، وأن تعيش معها ومع زوجها حتى تنتهى برونيا من امتحاناتها النهائية وتحصل على شهادة الطب ·· !

احتارت ماريا فيما تفعله ازاء هذه الدعوة وهذه الظروف الجديدة ‥ ولكنها فى النهـــاية أحصت ما ادخرته من نقود ‥ وأعطاها والدها نقودا اضافية ، وبدأت تستعد للذهاب الى حيث سيتحدد مستقبلها ‥

٨ ـ الرحيل الى باريس

وفى خريف عام ١٨٩١ ، بلغت ماريا سن الرابعة والعشرين ٠٠ وعلى رصيف القطار بمحطة السكك الحديدية الرئيسية فى وارسو ٠٠ وقفت ماريا لتقول وداعا لوالدها : « لن أتغيب عنك كثيرا ٠٠ مجرد عامين أو ثلاثة أعوام حتى أنتهى من دراستى وأجتاز امتحاناتى بنجاح ٠٠ وعندئذ سأعود اليك فورا ٠٠ ولن تفترق الأسرة بعد ذلك أبدا ٠٠ ! » ٠

وقال الأب والدموع تترقرق فى عينيه :

ـ نعم يا صغيرتى العزيزة ٠٠ عودى فورا بعد

الانتهاء من دراستك ·· وعليك أن تعملى بكل جهدك ·· ، وأتمنى لك حظا سعيدا !

وركبت ماريا عربة صغيرة صندوقية الشكل ملحقة بآخر عربات القطار ، لأنها لم تدفع الا أجرا قليلا حتى تجد مقعدا غير مريح فى تلك العربة ·

وانطلق بها القطار الى باريس عبر ألمانيا ·· باريس حيث توجد أختها برونيا ·· وحيث ستحدد أهداف حياتها ·· ولم تكن تعلم حين كان القطار منطلقا فى هذا الطريق الطويل ، أنها كانت فى الوقت نفسه تعبر خارجة من فلول الظلام الى الاضواء الساطعة ·· وأنها بدأت الآن أولى خطواتها فى أن تصبح من النساء الشهيرات فى العالم !

وبعد أسابيع قليلة من وصولها الى باريس أصبحت ماريا سكلودوفسكا ·· تلك الفتاة البولندية التى ترتدى ملابس فقيرة ·· طالبة « علوم » فى أشهر جامعة فرنسية ·· وقيدتها الجامعة باسم « مارى سكلودوفسكا » ·

٩ ـ بيتها فى باريس

لم تستطع « مارى » أن تواصل الحياة فى بيت اختها برونيا وزوجها ٠٠ فقد كان البيت يقع فى منطقة بعيدة عن الجامعة ٠٠ وكانت تضيع وقتا طويـــلا فى الذهاب والاياب ، وهى التى كانت لا تريــــد أن تقضى دقيقة واحدة بعيدة عن كتبها ودراساتها ٠

وهكذا استأجرت حجرة صـغيرة فى أعلى بيت متواضع ٠٠ ولم يكن بتلك الحجرة الا نافـذة صغيرة بسقفها المائل يتسلل منها ضوء النهار ٠٠ ولم يكن فيها من الأثاث الا سرير صغير ، ومقعد واحد ، ومنضدة ،

وحوض صغير للغسيل والاستحمام ، وموقد صغير للطبخ ، ومصباح صغير يضاء بالزيت ٠

ولم تكن تنفق من النقود الا فى تسديد ايجار تلك الحجرة وشراء أقل قدر ممكن من الطعام ، وشراء كل ما تحتاجه من الكتب ودفع مصاريف الدراسة ٠ وظلت فترة طويلة لا ترتدى الا الملابس المتواضعة التى جاءت بها من بولندا ٠

وانصرفت مارى بكل كيانها الى العلم والدراسة ، لدرجة كانت تبدو معها وكأنها فقدت احساسها بالجوع او احساسها ببرد الشتاء !

وبالرغم من برودة ليالى الشتاء القارسة ، كانت مارى لا تستطيع شراء بعض الفحم لتدفئة حجرتها ٠٠ بل وكانت تنسى فى أحيان كثيرة أن توقد الموقد الصغير لعله يوفر لها بعض الدفء ٠٠ وذلك لشدة انغماسها فى الدراسة والمذاكرة ، ورغبة منها فى عدم تضييع ولو دقيقة واحدة بعيدة عن كتبها ٠

وكانت تواصل المذاكرة دون أن تشعر بأن أصابعها

قد أوشكت على التجمد ، وأن كتفيها ترتعشان من شدة البرد ٠٠ ربما كان بعض الحساء الساخن يمنحها بعضا من الدفء والقدرة على التحمل ، ولكنها لا تعرف كيف تصنع الحساء ٠٠ بل وحتى ان كانت تعـــرف كيف تصنعه فانه سيكلفها نقودا هى فى أشد الحاجة اليها ، فضلا عن أن اعداد الحســاء سيتطلب وقتــا تحتاجــه لمواصلة الدراسة والمذاكرة ٠

وكانت تقضى أياما وأياما لا تتناول فيها من الطعام شيئا سوى قطع من الخبز والزبد وبعض أكواب الشاى ٠٠ وحين كانت تريد أن تقيم لنفسها وليمـــة ، كانت تشترى بيضتين ، أو بعض الحلوى أو الفاكهة ٠٠

وبطبيعة الحال ، فان هذه المقادير القليلة البسيطـة من الطعام ، لم تكن تكفيها أو تساعدها على مواصلـــة جهودها المضنية التى كانت تبذلها فى الدراسة ٠٠ لذلك فقد أصيبت بالضعف والهزال ٠٠ وفى بعض الأحيـان كانت تتماسك بصعوبة حتى تصل الى سريرها الصغير وترتمى مغشيا عليها من شدة التعب ٠

١٠ ـ الجوع

وفى يوم ما ، سقطت مارى مغشيا عليهـــا أمام احدى صديقاتها التى أسرعت بابلاغ زوج أختها الذى كان يعمل طبيبا ٠٠ وانطلق الطبيب الى مارى بأقصى سرعة لينقذها مما هى فيه ٠٠ وصعد درجات السلالم عدوا حتى وصل الى تلك الغرفة العلوية الصغيرة التى ترقد فيها مارى وهى تعانى حالـــة من الاعياء بحيث أصبحت لا تقدر على الحركة ٠

نظر الطبيب حوله الى محتويات الغرفة من الأثاث الفقير ٠٠ ولاحظ عدم وجود أى طعام أو أى شىء يؤكل،

عدا باكو صغير من الشاى نصف ممتلىء ‥ فسألها وهو لا يكاد يصدق ما يرى :

ــ ماذا أكلت اليوم ‥ ؟

فقالت بصوت ضعيف :

ــ لا أدرى ‥ لقد أكلت شيئا منذ وقت مضى ‥ !

ــ ما هو بالضبط ‥ ماذا أكلت بالضبط !

ــ احدى ثمار الفاكهة ‥ و ‥ وأشياء أخرى !

وعاود زوج أختها الطبيب سؤالها مرة أخرى حتى عرف منها أنها لم تتناول من الطعام شيئا منذ مساء اليوم السابق الا ثمرة فاكهة وقليلا من الخضراوات غير المطبوخة ‥ وأنها ظلت تواصل العمل والمذاكرة حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ولم تنم سوى أربع ساعات فقط ، انطلقت على أثرها الى الجامعة لسماع محاضراتها وأداء دروسها العملية ‥ وعندما عادت الى حجرتها لم تجد فيها شيئا يؤكل ‥ ومع ذلك

فقد بدأت فى مذاكرة دروسها الى أن سقطت مغشيا عليها ٠

وانتقلت مارى الى بيت أختها برونيا لتعيش معها بضعة أيام قليلة حتى تستعيد صحتها ٠٠ وتناولت هناك من الطعام ما يقيم أودها وما يحتاجه جسمها الهزيل من تغذية ٠

ولكنها كانت مع ذلك حزينة وغير سعيدة لانقطاعها عن المذاكرة والذهاب الى الجامعة ٠٠ لذلك أصرت على العودة الى حجرتها الصغيرة القريبة من الجامعة ٠ وسرعان ما انغمست فى الدراسة مرة أخرى ٠

وبالرغم من كل هذا العناء الذى كانت تواجهه مارى فى حياتها فى تلك الفترة ، الا أنها كانت تشعر بالسعادة ٠٠ بل وكانت تقول ان فى امكان كل انسان أن يشعر بالسعادة حتى ولو لم يكن معه ما يحتاجه من نقود أو ما يكفيه من طعام ٠٠

كانت ترى أن السعادة كامنة فى الانغماس فى

العمل ٠٠ وحين كانت تواصل عملها فى حجرتها المتواضعة الصغيرة طوال الليل ٠٠ كانت تنسى كل شيء الا العلم ، والعلم وحده ٠٠ وفى بعض الأحيان كانت تتصور نفسها زميلة لكبار العلماء الذين عاشوا فى الماضى ٠٠ والذين كانت تعرف عنهم أنهم كانوا مثلها ٠٠ منصرفين الى العلم بكل كيانهم ٠٠ وانهم كانوا أيضا منفصلين عما كان يدور حولهم من شئون حياتهم الشخصية ٠٠ وأن اهتمامهم كله كان منحصرا فى العلم والبحث والمعرفة ٠

١١ ـ البرد

وكانت ليـــالى باريس قارســة البرودة فى فصل الشتاء ٠٠ وكانت الحجرة العلوية التى تعيش فيهـا باردة جدا لدرجة تمنعها من النوم ٠٠ وكيف كان يمكنها أن تنام وكل شىء حولها بارد الى درجة التجمد ٠٠

وعندما كانت تعجز عن شراء بعض الفحم للتدفئة، كانت تواسى نفسها بأنها فتاة بولندية ٠٠ والشتاء فى وطنها بولندا أشد قسوة من شتاء باريس ، ولذلك فمن الواجب عليها أن تتحمل ٠٠

ولكن البرد كان أشد قسوة وأقوى من ارادتها

الحديدية ٠٠ ومع ذلك فقد حاولت أن تواجهه بكل ما يخطر على بالها من حيل ٠٠ فكانت عندما تتأهب للنوم ، ترتدى أكبر عدد ممكن من ثيابها ، وتغطى نفسها بكل ما تبقى لديها من ثياب أخرى ٠

ومع ذلك فقد كان البرد يشتد مع مرور كل لحظة ٠٠ فماذا فعلت حتى تواجه هذا الموقف ؟ ٠٠ لقد مدت يدها من تحت الأغطية ، وسحبت المقعد الوحيد الموجود فى حجرتها ، ووضعته فوق الأغطية ، لعل ثقل المقعد فوق جسدها المرتعش ، يتيح لها بعض الدفء !

وكانت مارى تظل راقدة بهذا الوضع دون أية حركة ، خــوفا من اهتزاز المقعد أو سقوطه ، فتفقد الدفء وتتعرض الى البرد من جديد !

وهكذا تظل مستيقظة من شدة البرد الذى يمنعها من الاستغراق فى النوم ٠٠ وتظل عينها مفتوحة وهى ترى على ضوء المصباح الخافت ، زجاجة الماء التى تشرب منها ، وقد تجمد الماء فيها وأصبح ثلجا !

١٢ ـ زواجها

كانت تواصل دراستها ليلا ونهارا .. حتى تتمكن من اجادة اللغة الفرنسية اجادة تامة ، كتابة وقراءة .. وحتى يمكنها بالتالى من مواصلة دراستها للعلوم حيث تلقى المحاضرات النظرية والعملية باللغة الفرنسية ، وحيث الكتب العلمية مكتوبة أيضا بتلك اللغة .. كما كانت تحرص دائما على اجراء تجاربها العلمية بمعامل الجامعة .

وكانت متعتها الوحيدة ، حين كانت تركب احدى الدراجات وتتجه بها صوب الريف ، حيث الخضرة

والزهور والأشجار والفضاء الرحيب . وعندئذ كانت تحس أنها أصبحت فى غنى عن أى شىء آخر . وبالرغم من شبابها فقد كانت لا تشعر بأية رغبة فى الحب .. خصوصا بعد تجربتها الأولى .. وكانت تجربة مريرة كما رأينا .

لذلك فقد اندهشت مارى كثيرا حين لاحظت أنها بدأت تهتم كثيرا بزميل لهـا يدعى « بيير كورى » .. وكان عالما فرنسيا يقضى معظم أوقاته فى اجراء التجارب العلمية بمعامل الجامعة .

وربط بينهما العمل فى المعامل برباط وثيق .. بدأ باحترام كل منهما للآخر ، ثم اعجابه ، ثم صداقته، ثم الوقوع فى حب عميق جعلهما يشعران بأن كلا منهما لا يستطيع أن يستغنى عن الآخر ..

وفى عام ١٨٩٥ تزوجا .. وبعد الزواج مباشرة تركا باريس وذهبا الى الريف ليقضيا هناك أياما قليلة .. وكانا سعيدين غاية السعادة ، خصوصا حين كانا يتجولان بين الدروب الضيقة التى تفصل بين الحقول

.. وحين كانا يتجولان بين أشجار الغابة .. وكان الحـديث بينهما متصـــلا لساعات وساعات طويلة .. يتناقشان فى العلوم .. وفى التجارب المعملية .. وفى الكيفية الصحيحة التى تمكنهما من خدمة العلم بكل طريقة ممكنة .. وكانا يحلمان بأن يكون لديهما معمل خاص يجريان فيه تجاربهما ..

وسرعان ما عادا الى باريس مرة أخرى ليواصلا العمل معا ..

١٣ ـ البيت الجديد

ولكن الزواج ألقى على عاتقها الكثير من الواجبات والمسئوليات .. لقد سكنت الآن فى شقة كبيرة مكونة من ثلاث حجرات ، بأعلى أحد البيوت وتطل على حديقة ..

ولم تكن الشقة مجهزة بأثاث أكثر من حاجتهما الأساسية . واذا جازف أحد الأصدقاء بزيارتهما ، فقد كان عليه أولا أن يتحمل تعب الصعود فوق تلك الدرجات العديدة . ولن يجد لديهما الا رفوفا تراصت فيها الكتب والمراجع ، ومنضددة ومقعدين اثنين فقط

يجلس عليهما الزوجان المنصرفان كلية الى الدراسة والمذاكرة ٠

والآن أصبح على مدام كورى أن تعد وجبات الطعام ٠٠ وحين كانت تعيش وحدها ، لم تكن تهتم بهذا الموضوع ٠٠ ولكنها الآن أصبحت ربة بيت وعليها اعداد الطعام لنفسها ولزوجها ٠٠ وهكذا تعلمت كيف تصنع الحساء ٠٠ وكيف تطبخ بعض الخضراوات التى تستيقظ مبكرة حتى تذهب لتشتريها من السوق وكان يجب عليها أن تطبخها بطريقة سهلة لا تضيع كثيرا من وقتها ٠٠

وكان الزوجان يقضيان فى المعمل نحو ثمانى ساعات يوميا ، ومع ذلك فقد كانا يشعران أن هذا الوقت غير كاف لمواصلة اجراء تجاربهما ٠٠ وحين كانا يعودان الى البيت كانا يجلسان الى طرفى المنضدة ، وبينهما مصباح يعمل بالزيت ويشع نورا خافتا ولكنه يكفيهما لمواصلة القراءة ٠٠ وحتى الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل ، لا يسمع فى حجرتهما أى صوت سوى صرير القلم وهو يكتب على الورق ، أو

حفيف صفحات الكتب حين يقلب أحد الزوجين صفحات كتابه بعد أن يقرأها لينتقل الى صفحات أخرى .

وبعد نحو سنتين رزق الزوجان بأول أطفالهما .. وكانت بنتا سمياها « ايرين » .. وقد حصلت هذه البنت فيما بعد على جائزة نوبل .. !

وازدادت واجبات ومسئوليات مدام كورى بعد أن أصبحت أما .. ولكنها مع ذلك واصلت دراساتها وأبحاثها العلمية بروح متفائلة وسعيدة .

١٤ ـ فى المعمل

فى البيت ، كانت الأم مارى كورى تقوم بكافة واجباتها نحو ابنتها الوليدة ونحو زوجهـــا ٠٠ وفى المعمل ، كانت العالمة مارى كورى تواصـــل تجاربها العلمية بمنتهى النشاط ، حيث أدركت أنها أصبحت على مشارف اكتشاف علمى جديد لم يسبقها اليه أحد من علماء العالم ٠

ومنذ سنوات قليلة سابقة على هذا التاريخ ، كان أحد العلمـــاء قد اكتشــف مادة جديدة اسمها « اليورانيوم » وقال ان هذه المادة يصدر منها نوع من

الاشعاع (الذى سـمته مدام كورى فيما بعد باسم النشاط الاشعاعى) .

ولكن كيف يصدر النشاط الاشعاعى من تلك المادة .. وما هو شكله .. وما هى آثاره .. ؟!

هذا هو السر الذى كانت مدام كورى تسـعى لاكتشـافه .. وكانت من أجله تجـرى التجارب تلو التجارب .. تنجح فى مرة وتفشل فى مرات .. ثم تنجح فى احدى المرات ، ولكن النجـاح يزيد السر انغلاقا ، ويتطلب اجراء عشرات من التجارب العلميـة الأخرى .

وهكذا ظلت مدام كورى تواصل أبحاثها وهى تشعر فى قرارة نفسها أنهـا على وشك أن تكتشف هذا النشاط الاشعاعى المجهول ..

وكانت مارى كورى قد كتبت قبل ذلك بمدة طويلة تقول : « ان الحياة ليست سهلة .. ويجب أن نعمل بكل همة ، وأن نثق فى قدراتنا وفى أنفسنا ثقة كاملة . ويجب أن نؤمن بأن كل واحد منا قادر على اجادة

العمل الى أقصى حد ·· وعندما نكتشف سر هذا الشيء الذى نبحث عنه ، نكون قد نجحنا فى اداء عمل نافع » ··

وهذا الشيء الذى كانت تبحث عنه مدام كورى ، كان شيئا جديدا بالفعل ·· أدى الى أن يفتح أمام العلم آفاقا جديدة واسعة ··

١٥ ـ الزوجان يعملان معا

فى تلك الفترة ترك الزوج جميع أبحاثه وتجاربه المعملية ، وانضم الى زوجته ليعاونها فى البحث عن ذلك الاشعاع المجهول ·· ومنذ ذلك الوقت كانا يكتبان فى تقاريرهما العلمية : « لقد عملنا كذا » أو « قام أحدنا بعمل كذا » .

وفى عام ١٨٩٨ أعلنا أن هناك شيئا فى الطبيعة يسمى « النشاط الاشعاعى » ·· يصدر عن مادة مازالت مجهولة أطلقا عليها اسم « راديوم » ·

ولكن هـــذا الكشف الجديد الذى أعلن عنه

الزوجان كان على عكس المعلومات التى كانت سائدة بين علمـــاء تلك الفترة . لذلك أنصت العلماء جيدا الى ما أعلنـــه الزوجان ، ولكنهم لم يصـــدقوا شـــيئا مما قالاه ..

وقال بعض العلماء المنصفين : « اذا كنتما تريدان اقناعنا حقا بما تقولاه وأعلنتماه .. فيجب عليكما أن تريانا بعض هذا الراديوم الذى تقولان بوجوده ! » .

وهكذا أصبح على الزوجين الآن أن يقضيا سنوات طويلة فى البحث العلمى حتى يتمكنا من تحضير هذا الراديوم ، ويثبتا صحة نظريتهما الجديدة .

وكان هناك مبنى صغير يقع خلف المدرسة التى كان يعمل بها الزوج .. وكانت جدران هذا المبنى وسقفه مصنوعة من الخشب وبعض ألواح الزجاج . ولا يوجد به من الأثاث سوى بعض المناضد القديمة ، وسبورة ، وموقد قديم .. كما أن المبنى نفسه لم يكن أفضل من كوخ قديم لا يرغب فيه أحد ، ولا يعرف أحد كيف يمكن الاستفادة منه ..

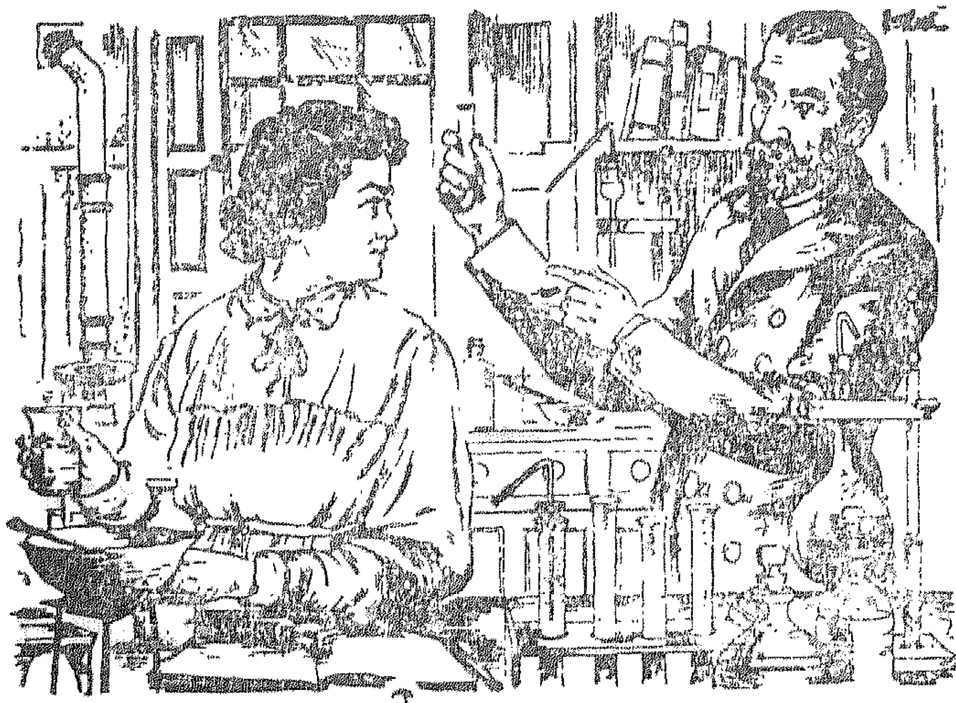
واتخذ الزوجان من هذا المبنى معملا يجريان فيه تجاربهما العلمية لمدة أربع سنوات طويلة مضنية ، لم يضيعا فيها لحظة واحدة ٠٠ كانا يعملان طوال النهار وجزءا كبيرا من الليل ٠٠ يستعملان الميزان الدقيق فى وزن بعض المواد ٠٠ ويقومان باذابة بعض المواد ٠٠ ثم يجريان الكثير من الحسابات والمعادلات ٠ ويعيدان هذه الكرة مرات ومرات ومرات ٠٠

كانا يؤمنان بوجود الراديوم ٠٠ ولكن أين ٠٠ وكيف يحصلان عليه ٠٠ ؟!

هل سيستطيعان فى يوم ما الوصول الى هذا السر العظيم ٠٠ ؟!

هذا الأمل كان يدفعهما الى تحمل مواصلة العمل الشاق فى ذلك المعمل ٠٠ الحار صيفا البارد شتاء ٠٠ والذى تتساقط من سقفه المياه كلما أمطرت السماء ٠

وبالرغم من هذا العمل الشاق الذى استمر لأربع سنوات متوالية ، كان الزوجان يعتبران هذه السنوات من أسعد فترات حياتهما ٠٠


ماري وبيير كوري في معملهما ٠

وظلا يعملان يوما وراء يوم ·· وأســبوعا وراء أسبوع ·· وشهرا بعد شهر ·· وعاما بعد عام ·· حتى أصبحا قريبين تماما من ذلك الاكتشاف العلمى العظيم ·

١٦ ـ النجاح

وفى مســـاء أحد الأيام فى عام ١٩٠٢ ، كان الزوجان قد غادرا معملهما منذ نحو ساعتين ، وتوجها الى البيت ٠٠ وبينما كانا جالسين ٠٠ نهضت مارى كورى من مقعدها وقالت لزوجها :

ـ فلنـــذهب الآن الى المعمـــل ٠٠ ولو للحظة واحدة ٠٠ !

وارتديا ملابس الخروج ٠٠ وغادرا البيت الساعة التاسعة مساء ٠٠ واتجها عبر الشوارع الى حيث يوجد

المعمل ٠٠ وأولج الزوج المفتاح فى قفل الباب فانفتح ٠٠ وهنا قالت له زوجته :

ـ لا تضىء المصباح ! ٠٠ أنظر ماذا ترى ٠٠ !!

كان هناك ضـــوء أزرق خافت يشع من بعض أنابيب الاختبار الموضوعة على بعض المناضد ٠٠ لقد توصل الزوجان أخيرا الى السر الذى كانا يبحثان عنه كل هذه السنوات الطويلة ٠٠ الراديوم !!

١٧ ـ شهرة لايرغبان فيها

بمجرد اعلان نبأ اكتشـــاف الراديوم ٠٠ ذاعت شهرة الزوجين باعتبارهما من كبار العلماء الذين أماطوا اللثام عن أسرار الطبيعة ٠٠

ولكن الزوجين لم يتمتعا بهـذه الشـهرة لأنهما لا يرغبان فيها ولا يسعيان الى تحقيق الأمجاد الشخصية ٠٠ كانا يريدان أن يواصـــلا سـعيهما الى مزيد من الاكتشافات الجديدة ٠٠ وكانا يتمنيان أن تهيىء لهما أية جهة معملا مناسبا مجهزا بجميع الأدوات والمواد والمستلزمات العلمية التى تساعدهما على اجراء المزيد من

التجارب ٠٠ وأن يتركهما النـــاس ليواصلا حياتهما العلمية فى سلام وهدوء ٠٠

فهل تحقق لهما هذا الأمل ٠٠ ؟!

فى كل يوم تقريبـا ، كانا يتلقيان دعوات الى حضور المآدب الكبيرة ٠٠ والاجتماعات الهامة ٠٠ وطلبت منهما الصحافة أن يكتبا مقالات لنشرها فى الجرائد والمجـلات ٠٠ كما طلبت منهما الكثير من الجمعيـات والهيئات أن يلقيا الأحاديث والمحاضرات فى اجتماعات عامة ٠٠ بل وجاء الصحفيون الى بيتهما ليكتبوا عنهما الأحاديث وليأخذوا لهما الصور الفوتوجرافية ٠ بل وليصوروا أيضا ابنتهما الصغيرة وكل شىء آخر بالبيت حتى القطة الأليفة ٠٠ وليعرفوا رأيهمـا فى أشـــياء عديدة مختلفة ٠٠

وكان الزوجان يعتبران ان تلك الشهرة العريضة نوع من المضايقات وتجربة مؤلمة يودان أن يهربا منها ٠

وكانت مدام كورى لا تحب ولا ترغب فى أن تحيط نفسها بهالة من الضوء ٠٠ وظلت لسنوات طويلة

حين كانت تسير في الشوارع مثلا ويســـألها بعض الناس :

ـ الست أنت مدام كورى · ؟!

كانت تجيب هؤلاء بصوت بارد ممزوج بالخوف :

ـ لا ·· بكل أسف ·· !!

١٨ ـ المعامل والمجوهرات

وتبين لنا الحادثة الطريفة التالية حقيقة الاهتمامات التى كانت تدور دائما فى ذهنى هذين الزوجين ٠٠ فبعد نحو عام من اعلان اكتشافهما العلمى الكبير دعيا الى الحضـور الى انجلترا للتبـاحث مع أكبر وأشهر العلماء الانجليز ٠

وقام مسـيو بيير كورى بالقـاء محـاضرة علمية ضافية أمام حشد كبير من هؤلاء العلمـاء ٠٠ وبعد انتهاء المحاضرة ، أقيمت للزوجين مأدبة ضخمة حضرها العلماء وكبار أعضاء الأوساط العلمية ومعهم زوجاتهم ٠

وكانت جميع السيدات اللاتى حضرن هذا الحفل المتألق يرتدين أفخر الثياب ، ويتحلين بأغلى وأثمن أنواع الحلى والمجوهرات ٠٠ وكانت مارى كورى تنظر الى تلك المجوهرات الثمينة باعجاب شديد ٠٠ ولكن الذى أثار دهشتها أكثر حين رأت زوجها ـ الذى لا يهتم اطلاقا بالحلى ولا المجـوهرات ـ يتطلع بدوره الى تلك المجوهرات باعجاب شديد مماثل لاعجابها ٠٠ !

وحين انفرد الزوجان ببعضهما بعد انتهاء الحفل، قالت مدام كورى لزوجها :

ـ بيير ٠٠ لم أكن أتصور أن توجد مثل هذه المجوهرات فى العالم ٠٠ يالها من مجوهرات رائعة ٠٠ !
فضحك الزوج وقال :

ـ تصورى ٠٠ كنت أنظر فعلا الى كل هذه المجوهرات باعجاب شديد ٠٠ ثم تحول هذا الاعجاب الى فكرة طريفة شغلت تفكيرى طوال الحفل ٠٠ أخذت أحسب الثمن التقديرى لكل هذه الحلى والمجوهرات قطعة قطعة ٠٠ ثم بدأت أجمع اجمالى أثمان هذه القطع

كلها .. وأتخيل في الوقت نفسه كم من المعامل العلمية يمكن اقامتها لخدمة العلم بثمن هذه المجوهرات !!

١٩ ـ جائزة نوبل

وفى نفس العام ، منح الزوجان جائزة نوبل للعلوم الطبيعية . ولكنهما لم يستطيعا السفر الى السويد لاستلام الجائزة بسبب انهماكهما الشديد فى القاء المحاضرات وفى اجراء التجارب العلمية بمعملهما .. وعندما ارسلت اليهما قيمة الجائزة ، كانت مبلغا كبيرا من المال ، ساعدهما فى التفرغ تماما للبحث العلمى .

ثم حدث بعد ذلك اكتشاف مثير آخر ، فقد تبين أن الراديوم يصلح علاجا لمرض من أخطر الأمراض التى

تصيب البشر ، وهو مرض السرطان ٠٠ ولكن المشكلة هي أن انتاج الراديوم يحتاج الى أموال طائلة ٠ بل ان فكرة انتاج الراديوم نفسها تستحق مكافأة كبيرة يجب أن يحصل عليها الزوجان ٠

وفى صباح أحد الأيام ، قال بيير كورى لزوجته وهو يمسك فى يده خطابا وصله من أمريكا :

ـ دعينا نتحدث قليلا عن قيمـة الراديوم الذى اكتشفناه ٠٠ فمن المؤكد أن العالم كله سيحتاج اليه ٠٠ وقد وصلنا هذا الخطاب من أمريكا يدعوننا فيه للذهاب الى هناك لمعاونتهم فى انتاج الراديوم بكميات كبيرة ، ويعدوننا بمبلغ كبير من المال ٠٠ وعلينا الآن أن نقرر ما سوف نفعله ٠٠ هل نحتفظ بسر انتاج الراديوم لأنفسنا ولا نبيعه الا مقابل ثروة كبيرة طائلة ٠٠ أو نعلن هذا السر على الملأ بلا مقابل كما يفعل العلماء الذين وهبوا أنفسهم للعلم ؟ ٠ وأنت تعرفين بلا شك أننا نعيش حياة بسيطة متواضعة ٠٠ وأصبحت لدينا ابنة لها كثير من الاحتياجات ٠٠ وربما سيكون لدينا

أطفال آخرون فى المستقبل .. ان المبالغ الكبيرة التى يمكننا الحصول عليها ستوفر لنا حياة فيها قدر كبير من الراحة ، كما ستساعدنا أيضا فى انشاء معمل علمى كبير ومجهز بكل ما نحتاجه من مواد ومعدات وأجهزة .. !

٢٠ ـ القرار الحاسم

لم تفكر مدام كورى كثيرا فى هذا الموضوع ، بل كانت اجابتها جاهزة . فما أن انتهى زوجها من كلامه حتى قالت فى حزم :

ـ ان واجب العلماء أن يعطوا اكتشافاتهم للعالم .. حتى ولو كانت أسرار هذه الاكتشافات تساوى أموالا طائلة .. اننا لا يمكن أن نبيع أو نتاجر فى سر اكتشافنا .. ان ذلك سيكون ضد الروح العلمية !

وحل صمت قصير ·· ثم ردد بيير كورى كلام زوجته بهدوء وصدق :

ـ حقا ·· ان ذلك سيكون ضد الروح العلمية !

وبعد نحو ربع ساعة من هذا الحديث وما انتهى به من قرار حاسم ·· ركب الزوجان دراجتيهما ؛ واتجها الى منطقة ريفية بخارج المدينة ، وعادا فى آخر النهار متعبين ، ومعهما مجموعة كبيرة متعددة الألوان من الزهور وأوراق الشجر ·· !

٢١ ـ الشهرة والأطفال

كانت الشــــهرة تســــبب للزوجـين كثيرا من المضـــايقات · لأنهما كانا قد وهبا حياتهما للعلم ، وأصبحا لا يهتمان بأية شهرة أو تكريم لشخصيهما ·

وفى احـدى المرات سألهـا أحد الصحفيين عن نفسها وأفكارها ومعتقداتها . فاجابته اجابة صريحة مختصرة :

ـ ان العلماء يهتمون بالأشياء والشئون العلمية ولا يهتمون باشخاصهم !

وفى مرة أخرى حـين كانت مدام كورى مدعوة

الى حفل كبير ، جاءها أحد الأصدقاء وسألها عما اذا كانت تحب مقابلة ملك اليونان الذى كان حاضرا فى نفس الحفل ٠٠ فأجابت بنفس البساطة التى كانت تتميز بها اجاباتها :

ـ انى لا أرى أية قيمة لذلك ؛

ثم استطردت حين رأت أنها قد جرحت مشاعر صديقها بتلك الاجابة :

ـ ولكن ٠٠ ولكننى على استعداد أن أفعل ذلك لأجل خاطرك ٠٠ !

ومرت عدة شهور واصل فيها الزوجان أبحاثهما العلمية فى معملهما ٠٠ وأصبحت حياتهما سهلة الى حد ما وخالية من المشاكل ٠٠ ثم رزقا بطفلة ثانية سمياها « ايف » ٠٠ واضطرت مدام كورى أن تقسم أوقاتها بين ممارسة وظيفة الأم وربة البيت ، وممارسة واجباتها كعالمة كبيرة من أشهر العلماء ٠٠

وطلبت الجامعة الفرنسية من مسيو بيير كورى

أن يقوم بتدريس علوم الطبيعة والقاء المحاضرات .
ولكنه رفض تلك الوظيفة بسبب عدم وجود معمل للتجارب العلمية فى تلك الجامعة .. وصمم على الرفض الا اذا قامت الحكومة ببناء هذا المعمل العلمى وتجهيزه بكافة الاحتياجات .

وعندما اتسع نطاق الأبحاث العلمية فى معملهما الخاص ، استعان الزوجان بثلاثة من المساعدين للمعاونة فى أعمال المعمل ، يعملون تحت اشراف مباشر من مدام كورى .

وفى هذا الجو العلمى الحافل بالتجارب والأبحاث الدقيقة .. كان الزوجان مارى وبيير كورى يواصلان حياتهما السعيدة بكل كد وكل هدوء ..

٢٢ ـ موت بيير كورى

وفى يوم ١٩ ابريل ١٩٠٦ ، بينما بيير كورى يسير فى أحد شوارع باريس المزدحمة بالناس ، انزلقت قدماه فى مياه المطر فسقط على الأرض ، وداست عليه عجلات احدى العربات الثقيلة المسرعة ، فمات على الفور .. وهكذا انتهت حياة هذا العالم الكبير ..

كانت صدمة قاسية على زوجته وشريكته فى العلم والحياة .. وحزنت لدى سماعها النبأ حزنا هائلا حتى ظن بعض أصدقاء الأسرة أنها لن تفيق من هذا الحزن اطلاقا .

ولكن الحياة مع ذلك يجب أن تستمر ، خصوصا وأنها قد أصبحت الان مسئولة وحدها عن رعاية وتربية الطفلتين الصغيرتين ، كما تضاعفت أيضا مسئوليتها العلمية حيث أصبحت مسئولة عن مواصـــلة تجارب زوجها وتكملة أبحاثه بالاضـــافة الى مسئوليتها عن مواصلة تجاربها وأبحاثها الشخصية ٠

وفى خريف نفس العام ، صدر قرار من الجامعة التى كان يعمل فيهـا زوجها الراحل ٠٠ وكان القرار يتضمن سـطورا قليلة ولكنهـا نبيلة المرمى وعميقة المغزى ٠٠ كان القرار يتضمن تعيينها فى نفس وظيفة الأستاذ التى كان يشغلها زوجها قبل موته ٠٠ وتضمن القرار أيضا أن تقوم مارى كورى بالقاء محاضراتهـا على طلبة وطالبات الجامعة اعتبارا من يوم الاثنين القادم الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ٠٠ !

وفى الموعد المحدد ، كانت قاعة المحاضرات فى الجامعة قد امتلأت عن آخرها بحشد كبير من الجمهور بالاضافة الى الطلبة والطالبات من تلاميذ زوجها ٠٠

كان الجميع ينتظرون ما سوف تفعله تلك العالمة وما سوف تقوله ..

ترى .. هل ستقوم بالثناء على زوجها الراحل والثناء على أبحاثه العلمية ؟ .. هل ستشكر الجامعة على قرار تعيينها فى نفس الوظيفة التى كان يشغلها زوجها ؟ .. ان ذلك كان بطبيعة الحال أمرا متوقعا لا يخالفها فيه أحد .. !

ولكنها دخلت بكل هدوء الى قاعة المحاضرات ، وبصوت رصين بدأت فى القاء محاضراتها العلمية ، من نفس النقطة التى توقف عندها زوجها فى آخر محاضرة القاها قبل موته ..

وانهمرت دموع الحاضرين وهم يستمعون الى محاضرة تلك السيدة العظيمة التى وهبت حياتها للعلم ، تقديرا منهم لموقفها المتماسك النبيل ..

وعندما انتهت المحاضرة ، أسرعت فى الخروج بنفس الهدوء والتواضع ..

٢٣ ـ الحرب العالمية الأولى

واستمرت حياتها على هذا المنوال ٠٠ وفى عام ١٩١١ منحت جائزة نوبل مرة أخرى ٠٠ وفى عام ١٩١٤ تم انشاء المعهد العلمى الفرنسى الذى سيساعدها كثيرا على اجراء تجاربها وأبحاثها العلمية الجديدة ٠

ولكن الحرب العالمية الأولى نشبت فى عام ١٩١٤ ، وأصبحت فرنسا في خطر حقيقي ٠٠ وحين اقترب هذا الخطر من مشارف باريس ، قامت مدام كورى بنقل كمية الراديوم التى يمتلكها المعمل ، وخبأتها فى مكان آمن خارج باريس كلها ، وأسرعت فى العودة بعد ذلك

الى باريس لتواصل أعمالا وجهودا استلزمتها ظروف الحرب ..

وكان اكتشاف أشعة « اكس » واختراع الأجهزة الخاصة بتحضيرها قد تم منذ فترة بسيطة .. وبفضل مدام كورى ومعاونتها ، وضعت المئات من تلك الأجهزة فى مئات المستشفيات فى طول فرنسا وعرضها .. بل وجهزت بها أيضا بعض السيارات ليمكن نقلها من مكان الى مكان حسب الحاجة ..

وقد أطلق على هذه السيارات اسم لطيف هو « سيارات كورى الصغيرة » .. وكثيرا ما كانت تشاهد مدام كورى وهى تقود احدى هذه السيارات بنفسها ..

وقد قامت هذه الأجهزة بدور عظيم فى علاج عشرات ومئات الآلاف من الجرحى والمصابين بسبب المعارك الحربية .

وماذا يمكن أن نقوله أيضا عن تلك السيدة العالمة العظيمة .. ؟!

لقد أخذت تكبر فى العمر وتزداد ضعفا ٠٠ ولكنها مع ذلك ظلت محافظة على بذل جهودها العلمية بكل نشاط وكل همة ٠

وفى سنة ١٩٢١ رحلت الى أمريكا ٠٠ وذلك على اثر زيارة قامت بها احدى صديقاتها الأمريكيات الى باريس ٠٠

٢٤ ـ صديقتها الأمريكية

منذ سنوات طويلة ، أعجبت سيدة أمريكية اسمها « مسز ملونى » بكل ما كانت تسمعه أو تقرؤه عن حياة العالمة المناضلة مدام كورى ·· وبرغم بعد المسافة بين أمريكا وفرنسا ·· أصبحت مقابلة مدام كورى أهم أمانى تلك السيدة الأمريكية ··

وكم كانت السيدة سعيدة حين قابلت مدام كورى فى معملها فى باريس ذات صباح ·· وقد قالت مسز ملونى تصف تلك المقابلة فيما بعد : « لقد رأيت سيدة ترتدى ملابس سوداء بسيطة مصنوعة من القطن ··

وفى ملامحها رأيت أكبر حزن رأيته من قبل على وجه انسان ! » ٠

وحاولت مسز ملونى أن تشرح لمدام كورى مدى اعجاب سيدات أمريكا بها وبقصة كفاحها ونضالها فى سبيل خدمة العلم والانسانية ٠٠ ومدى الفخر الذى تحسه النسـاء الأمريكيـات لأن واحدة من جنسهن استطاعت أن تحقق كل هذه الانتصارات العلمية ٠

ثم تطرق حديثهمـا بعد ذلك الى الراديوم ٠٠ وأخبرتهـا مدام كورى بأن كل كميـات اليورانيـوم الموجودة فى أمريكا لا تزيد عن خمسين جراما فقط ، وأخذت تذكر لها أسماء المدن الأمريكية التى توجد فيها هذه الكميات من اليورانيوم ٠ وسألتها مسز ملونى :

ـ وما هى كمية اليورانيوم الموجودة فى فرنسا .. ؟

فأجابتها مدام كورى :

ـ فى معملى يوجد جرام واحد من اليورانيوم ٠٠!

ـ جرام واحد ؟! ٠٠ هل لا تملكين سوى هذا

الجرام الواحد من اليورانيوم ‥ ؟!

ـ أنا لا امتلك شيئا ‥ بل هو ملك للمعمل العلمى الذى أعمل فيه ‥ !

وعندئذ سألتها مسز ملونى سؤالا قد يبدو غبيا فى ظاهره ولكنه يبدو فى غاية الأهمية بالنسبة لمعناه ومغزاه :

ـ لو وضع كل ما فى هذا العالم تحت طلبك ‥ فماذا تختارين منه ‥ ؟!

وأجابت مدام كورى بلا تردد :

ـ لا أريد أكثر من جرام آخر من اليورانيوم حتى أتمكن من توسيع دائرة تجاربى وأبحاثى المعملية ‥ ولكننى لا أستطيع أن أشترى هذا الجرام ‥ لأنى لا أملك ثمنه ‥ !!

وحين عادت مسز ملونى الى أمريكا ، كانت قد اختمرت فى ذهنها فكرة الدعوة الى عمل عام ‥ وأخذت تلقى المحاضرات وتكتب الرسائل والمقالات تدعو فيها

الشعب الأمريكى نساء ورجالا الى مشاركتها فى تلك الفكرة ..

كانت مسز ملونى تقول ان مدام كورى قد اكتشفت الراديوم بعد جهد علمي جبار استمر لسنوات طويلة .. وقد أهدت اكتشافها الى العالم والانسانية بلا مقابل .. وهى تحتاج الآن الى جرام واحد من الراديوم لكى تواصل تجاربها وأبحاثها لخدمة العلم والتقدم ولكنها فقيرة لا تستطيع أن تشترى هذا الجرام .. وأصبح الراديوم بفضلها يوجد فى أنحاء كثيرة من العالم .. وان من واجب العالم الآن أن يشترى لها جراما من اليورانيوم لتواصل به أبحاثها التى ستهديها الى العالم مرة أخرى .. وهى لا تريد هذا الجرام لنفسها ، وانما ليكون ملكا للمعمل العلمى الذى تعمل فيه ..

وفى خلال عام واحد ، استطاعت مسز ملونى أن تجمع التبرعات من الشعب الأمريكى لشراء جرام اليورانيوم المطلوب ..

٢٥ ـ الرحلة الى أمريكا

وابحرت مدام كورى الى أمريكا مصطحبة معهـا ابنتيها ، لتتسلم جرام اليورانيـوم المهدى اليهـا من الشعب الأمريكى ٠٠ وكانت رحلة طيبة ولكنهـا لم تتمتع بها ٠٠ فقد كانت فى الرابعـة والخمسـين من عمرها ٠٠ ولم يعد لديها القوة التى تمكنها من تحمل عناء الرحلات التى كان يجب ان تقوم بهـا لزيارة الجامعـات والمعـامل والمناجم التى كانت تتنافس فى دعوتها لزيارتها ٠

ولم يكن لديها القوة التى تمكنها أيضا من القاء

المحاضرات أو تلبية كل الدعوات التى وجهت اليهـا لتكريمهـا والاحتفاء بهـا ٠٠ ولهذا فقد كانت تنيب ابنتيها فى حضور معظم هذه الدعوات ٠

وفى أكثر من مرة ، كانت ابنتها « ايف » التى بلغت آنئذ ستة عشر عاما ، تتولى الحضور نيابة عن أمها فى الحفلات التى كانت تقام لتكريمها ٠٠ وكانت تجلس فى نفس المقعد الذى خصصه المحتفلون لأمها وتسمع خطبا طويلة لمدح أمها والثناء عليها وعلى جهودها الطويلة المضنية لخدمة العلم والانسانية ٠

٢٦ ـ كيف قبلت هدية الشعب الأمريكى ؟

وكان أهم الاحتفالات التى أقيمت لتكريمها ، تلك الحفلة العظيمة التى أقيمت فى واشنطن والتى تولى فيها الرئيس الأمريكى اهداءها الراديوم باسم الشعب الأمريكى كله ..

وقد اندهش الرئيس الأمريكى وعلية القوم وكبار العلماء حين علموا بأن مدام كورى قد قامت باهداء الراديوم قبل أن تتسلمه .. ففى اليوم السابق على هذا الاحتفال ، حين علمت مدام كورى أن الراديوم

الذى سيهدى اليها سيكون ملكا لها ، وأن وثيقة الملكية قد دونت على هذا الأساس •• طلبت تغيير الوثيقة ليصبح هذا الراديوم ملكا للعلم ولمعملها الذى سيخصصه لمزيد من التجارب والأبحاث العلمية •

وعندما قال لها المختصون انه ذلك يمكن أن يتم بعد أن تتسلم الراديوم من الرئيس ، رفضت مدام كورى وأصرت على احضار أحد المحامين لتغيير وثيقة الملكية •• وقالت :

ـ اذا أصبح هذا الراديوم ملكى ، فمعنى ذلك أنه سيصبح ارثا لابنتى بعد وفاتى •• ولهذا فلا يمكن أن أنتظر تغيير الوثيقة بعد اسبوع ، أو حتى بعد يوم واحد •• فمن يدرى ربما أموت بعد ساعات معدودة •• يجب تغيير الوثيقة حالا !!

وتم العثور بصعوبة على أحد المحامين الذى تولى تغيير نص وثيقة الملكية ليصبح الراديوم ـ الذى لم تتسلمه بعد ـ ملكا للمعمل العلمى فى باريس •

وهكذا انتهت الحفـلات التى أقيمت لتكريمها
وانتهت كذلك زيارتها لأمريكا .. وعادت مدام كورى
وابنتاها مرة أخرى الى باريس .

٢٧ ـ سنواتها الأخيرة

ومرت السنوات ومدام كورى تعمل بنفس الهمة والنشاط ، ولكنها كانت تزداد ضعفا يوما بعد يوم ··

وقامت بزيارات كثيرة الى بولندا ·· وطنها الذى أحبته وخدمته ·· كما قامت بزيارات عديدة لعائلتها ولأصدقائها القدامى

وبالرغم من ضعف صحتها التى كانت تزداد سوءا باستمرار · حققت المزيد من النجاح فى أبحاثها العلمية ·· وكانت تقضى معظم أوقاتها فى معملها

بالمعهد العلمى بباريس ، حيث كان يحيط بها زملاؤها وتلاميذها ومساعدوها الذين كانوا جميعا يحبونها أعظم الحب ويقدرونهـا خير تقدير ، ويستمعون جيدا الى كل ارشاداتها ونصائحها ٠

ولكن صحتها أصبحت تزداد سوءا وضعفا ٠٠ وكان كبار الأطباء يحيطون بها وهم فى حيرة شديدة لعدم معرفتهم السبب الحقيقى لمرضها ٠٠ لأنه مرض لم يدرسوه فى الكليات ولم يعرفوا عنه شيئا من قبل ٠٠

وأخيرا اكتشف الأطبـاء أن مرضهـا كان نتيجة لتعرضها للنشـاط الاشعاعى الذى كان يصـدر من الراديوم الذى اكتشفته منذ سنوات طويلة ، والذى حقق لها كل هذا الصيت والنجاح ٠٠ ولكنه كان فى الوقت نفسه يدمر خلايا جسمها ٠٠

وخلال ساعاتها الأخيرة كان ذهنها مازال متقدا ٠ وظلت تتحدث عن العـلم ٠٠ وعن المعمل ٠٠ وعن دراساتها وأبحاثها ٠٠ وعن الراديوم !

وفى الرابع من يوليو عام ١٩٣٤ ماتت مدام كورى ٠٠ !

ودفنت فى احتفال بسيط حضره أقرب المقربين من أصدقائها وأعضاء أسرتها ٠٠ وفى نفس القبر الذى يرقد فيه زوجها ٠٠ وعلى شاهد هذا القبر كتب سطر جديد بسيط :

« مارى كورى سكلودوفسكا ١٨٦٧ ـ ١٩٣٤ » ٠

٢٨ ـ هديتها للعالم وفضلها على العلم

منــذ أن نجح الزوجان مارى وبيير كـورى فى اكتشاف الراديوم ٠٠ حدثت اكتشافات علمية مذهلة نتيجة لهذا الاكتشاف العظيم ٠٠

لقد استخدم الراديوم فى شفاء بعض الأمراض الخطيرة ٠٠ واســتخدم فى تحسين تنميــة النبــاتات والحيوانات ٠

وبفضل مدام كورى تيسرت سبل البحث العلمى لدراســة الفضــــاء فيما وراء الشمس والنجوم ٠٠ ولدراسة قياس أعمار بعض المخلفات أو الأشياء التى

كانت موجودة منذ ملايين السنين ..

حتى العلـوم الذرية (سواء اسـتخدمت لأجل الأعمـال الحربية أو للأعمال السلمية) كانت نتيجة مبدئية للتجارب التى أجراها الزوجان كورى فى الكوخ الذى اتخذاه معملا متواضعا فى باريس ، وظلا يعملان به لأربع سنوات متواصلة من الجـد والكفاح العلمى المستمر .

وحين توفيت مارى كورى ، كتب أحد تلاميذها المخلصين : « لقد فقدنا كل شىء » .. واذا كان هذا هو شعوره بالحزن العميق حين فقد أستاذته ومعلمته .. فان العالم كله يقول الآن عندما يذكر هذه المرأة العالمة العظيمة : « لقد تركت لنا الكثير .. وكسبنا منهـا الكثير .. لقد بذلت حياتها كلها من أجل العلم .. ومن أجل التقدم » .. !!

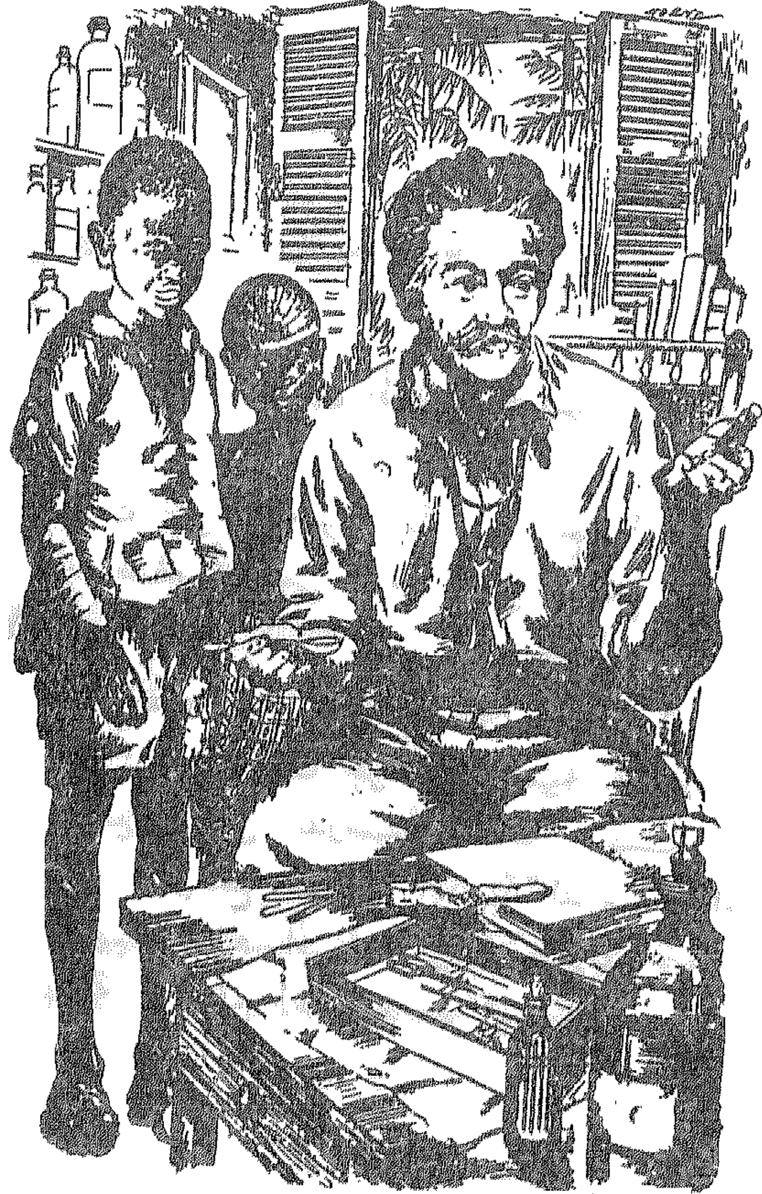
ألبرت شفايتزر

في وسط افريقيا .. ومنذ مدة ليست ببعيدة .. عاش أحد الأطباء العظام .. وكان عمره قد تجاوز الثمانين عاما قضى معظمها في العمل وسط أهالى افريقيا .

كان هذا الطبيب يعتبر افريقيا وطنه الثانى .. وقد عاش حياة عظيمة غير عادية ، تستهوى قصتها الملايين من الناس من كل جنس وكل دين ، وفى جميع أنحاء العالم .

ومما لا شك فيه أن عظماء الرجال يعتبرون ملكا للعالم أجمع ، وكان ألبرت شفايتزر أحد هؤلاء الرجال العظام الذين يفخر بهم العالم .

وحتى نتفهم أسرار تلك الحيـــاة العظيمة التى عاشها ، فان علينا أن نتتبع جميع مراحل حيـاته ، ابتداء بأيام طفولته ..



البرت شفايتزر ·

١ ـ العراك

كانت فترة العصر دافئة فى أحد أيام الخريف فى قرية صغيرة تسمى « جونزباخ » تقع فى منطقة « الألزاس » ..

وكل القرية تبدو هادئة كما لو كانت قد استغرقت فى النوم .. وفجأة دقت أجراس الكنيسة أربع دقات.. أعقبها رنين جرس المدرسة معلنا انتهاء اليوم الدراسى .. فوضع التلاميذ الكتب المدرسية داخل الأدراج وتهيأوا للانصراف عائدين الى منازلهم ، محدثين جلبة عالية من وقع أحذيتهم « الخشبية » على أرض الفصل ..

وبعد خروج التلاميذ من مبنى المدرسة ، حدث نقاش بين تلميذين ·· **قال التلميذ الأكثر طولا :**

ـ أنت لا تجسر على الدخول معى فى مباراة يا ألبرت شفايتزر ·· أنا أقوى منك بكثير ·· وأستطيع بسهولة أن ألقى بك أرضا فى أى وقت أشاء ·· !

فقال التلميذ الأصغر :

ـ هذا ما تظنه فى نفسك ·· مجرد كلام ولكنك لا تستطيع فعل ذلك يا جورج ·· !

وقال جورج :-

ـ لا ·· انى أستطيع !

فقال ألبرت :

ـ اذن ·· دعنا نجرب !!

واختار الصبيان المتنافسان ساحة المعركة المنتظرة ، على أرض ناعمة مستوية بأحد الحقول ··

واستعد كل منهما للانقضاض على الآخر ·· وفى لحظة خاطفة بدأت المعركة ··

هجم جورج أولا وأحاط بذراعيه حول وسط ألبرت ، وبدأ يضغط ليلقيه أرضا ·· ولكن ألبرت بدأ يقاوم بشدة ·· واستخدم المتصارعان كل ما لديهما من قوة ، وبدآ يلهثان وتقطعت أنفاسهما ··

وفجأة تمكن ألبرت من أن يفك ذراعى جورج من حول وسطه ، وبسرعة البرق أمسك بساق جورج ورفعها من الأرض ، وكانت الحركة التالية سقوط جورج على ظهره ، وجلوس ألبرت فوق بطنه معلنا انتصاره **وهو يضحك في سعادة غامرة ويقول :**

ــ هاه ·· ما رأيك الآن يا جورج ·· هل تجسر مرة أخرى على القول بأنك تستطيع أن تلقينى أرضا ؟!

وبدأ جورج فى البحث عن الكلمات التى يبرر بها هزيمته ·· **وأخذ يقول باستسلام واضح :**

ــ لقد انتصرت على يا ألبرت شفايتزر لأنك ابن

قسيس الكنيسة .. ولأنك معروف لدى الجميع بأنك « الجنتلمان الصغير » .. ولأنك أيضا لا تشعر بالجوع مثلنا .. فلو كان يتاح لى أن أشرب حساء ولو مرتين فى كل أسبوع لأصبحت قويا مثلك .. !

صمت ألبرت ولم ينطق بكلمة .. ولكنه قام من جلسته فوق بطن جورج ، وأخذ كتبه المدرسية التى كان قد ركنها على جانب من ساحة المعركة .. وبدأ يسير تجاه بيته .. **ولكن جورج صاح خلفه :**

ـ ألبرت .. البرت .. أرجو ألا تكون غاضبا منى .. !

كان البرت محبوبا بالفعل من جانب كل الأصدقاء .. ولكن الكلمات التى سمعها من جورج كان لها وقع كبير فى نفسه .. وما أن وصل الى بيته ، حتى دخل فورا الى حجرته ، وألقى بنفسه على سريره . وأخذ يفكر ..

وعندما حل موعد تناول العشاء ، تجمع كل أفراد الأسرة حول مائدة الطعام : الأب .. والأم .. وخمسة

من الأبناء ·· ولدان وثلاث بنات ·· وبدأ الأب يتلو صلاة شكر لله : « نشكرك يارب على ما وهبتنا من طعام ·· ان رحمتك وسعت كل شيء » ··

وقال أحد الأبناء :

ـ ماذا أعددت لنا من الطعام يا أماه ·· ؟

وقالت احدى البنات :

ـ حساء ·· أعتقد أنه حساء ·· هذا شيء عظيم ·· !

وعندئذ قالت الأم :

ـ خذ يا ألبرت ·· هذا طبق مملوء عن آخره بالحساء ·· فأنت أكبر الأبناء ·· وتشعر بالجوع دائما بعد عودتك من المدرسة ·· !

لم يقل ألبرت شيئا ·· بل جلس يتأمل فى طبق حسائه ، ويبدو وكأنه لا يسمع أصوات أمه وأبيه واخوته ·· بل يسمع بوضوح صوت زميله جورج

وهو يقول في حسرة : « لو كنت أتناول الحساء مثلك ولو مرتين كل أسبوع ٠٠ لأصبحت قويا مثلك ! » ٠

وأمسك بطرف الملعقة ، وغرف بهـــا قليلا من الحساء وأدخلها فى فمه ٠٠ ولكنه لم يستطع أن يبلع الحساء فى جوفه ٠٠ **فوضــع الملعقة على حافة الطبق وقال :**

ـ لا أشـــعر بالجوع ٠٠ وليست لدى رغبــة فى الطعام ٠٠

فقالت الأم وهى تشعر بالقلق :

ـ لا تشـــعر بالجـــوع ؟! ٠٠ كيف ٠٠ هل أنت مريض ؟!

فقال البرت بهدوء :

ـ لا ٠٠ ولكننى لا أشعر بالجوع فعلا ٠٠ والآن ٠٠ هل تسمحوا لى بالعودة الى غرفتى ٠٠ ؟!

وعندما أصبح وحيدا بغرفته ، **قال فى نفسه :**

ـ لن أكون متميزا عن الأولاد الآخرين ·· ولن أفعل شيئا يجعلهم يشعرون بأنى مختلف عنهم ·· أريد أن يشعر الجميع بأننا أصدقاء حقيقيين !

٢ ـ الحياة فى البيت

كانت أسرة شفايتزر تعيش سعيدة طول الوقت .. فالولدان والبنات الثلاث يعلبون مع بعضهم أجمل الألعاب .. وكان أولاد وبنات الجيران يسعدون أيضا باللعب معهم حول البيت .

وكانت الأم « مسز شفايتزر » تقضى كل وقتها فى خدمة الأسرة ورعايتها .. وكانت تجد كل سعادتها حين ترى أبناءها سعداء فى حياتهم ..

وكان الأب « مستر شفايتزر » يعمل قسا فى

كنيســة القرية وكان محل حب واحترام وتقدير من جميع الأهالى . وكانت وظيفته تلك تدر عليه دخلا بسيطا متواضعا يكفى بالكاد للوفاء بحاجات الأسرة ويهيىء لها حياة بسيطة .

ولكن الأب كان يحب أن يرى أبناءه وهم يرتدون ملابس حسنة وجميلة . وقد أدى ذلك الى حدوث نوع من سوء التفاهم بينه وبين ابنه ألبرت ..

ففى صــباح احد أيام الأحد .. وبينما كانت الأسرة تتأهب للذهاب الى الكنيسة ، دخلت الأم الى حجرة ألبرت وهى تحمل على ذراعها معطفا من معاطف الشتاء **وقالت** :

ـ أنظر يا ألبرت .. لقد اســـتطاع أبوك أن يشترى معطفا شتويا جديدا لأن معطفه القديم أصبح ضــيقا عليه .. وقد صــنعت لك منه هذا المعطف الشتوى الجميل .. انه يبدو كما لو كان جديدا !

احمر وجه البرت وهو يقول لأمه :

ـ لا أريد أن أرتدى هذا المعطف اليوم .. فالجو

ليس باردا ولا يستدعى ارتداء مثل هذا المعطف

فقالت الأم على الفور :

ـ كيف ·· ان الجو شديد البرودة فى الخارج !

واندهشت الأم حين لاحظت عدم اهتمام ألبرت بالمعطف الشتوى الجديد ·· **واندهشت أكثر حين قال ألبرت :**

ـ أماه ·· أرجو ألا تجعلينى أرتدى هذا المعطف ·· ان أحدا من أصدقائى أو زملائى لا يملك معطفا شتويا مثله ·· وأنا لا أريد أن أكون متميزا عنهم !

وحزنت الأم كثيرا حين رأت ألبرت لا يرتدى المعطف الشتوى أيضا حين كان يتأهب للذهاب الى المدرسة فى صباح اليوم التالى ·· وقد لبس الحذاء الخشبى فى قدميه ، وغطى رأسه بغطاء رأس ريفى يلبس مثله جميع الأولاد فى القرية ·

واضطرت الأم الى ابلاغ زوجها بذلك · وقام

الأب على الفور باستدعاء البرت ·· وكان الأب آنئذ جالسا فى حجرته ليكتب شيئا ما ·· وعندما امتثل ألبرت أمامه ، **وضع قلمه على المكتب وقال له :**

ـ الآن يابنى ·· أرجو أن تفهم أننا نعمل بجد لكى نربيكم ونرعاكم وننشئكم تنشئة حسنة ·· وان امك تعمل بكل طاقاتها لكى تعد طعامكم وملابسكم ·· وعليك أن ترتدى المعطف الشتوى الذى أعدته لك ·· فهو معطف يليق بابن قس الكنيسة ·· !

فاجاب ألبرت موضحا وجهة نظره :

ـ ولكن يا أبى ·· أنا لا أريد أن ···

ولم يكمل ألبرت اجابته حين رأى والده يمسك بالقلم مرة أخرى ويبدأ فى الكتابة من جديد · **وقال الأب فى شىء من الحزم :**

ـ أرجوك ·· ولأجل خاطر أمك ·· أن تسمع الكلام وترتدى الملابس التى نقدمها لك ·· هذا كل شىء !

وخرج ألبرت من حجرة أبيه .. وكان هذا الموقف بداية لاختلاف وجهات النظر بينه وبين أبيه .. وقد استمرت هذه المشكلة لفترة طويلة .. حيث كان الأب مصرا على أن يكون مطاعا من جانب الابن الذى يجب أن يسمع الكلام ويرتدى المعطف الشتوى .. وكان الابن مصرا من جانبه على ألا يكون مختلفا أو متميزا عن أصدقائه وزملائه الذين يلعبون معه أو يتعلمون معه فى المدرسة . وجميعهم كانوا لا يملكون معطفا شتويا مماثلا لهذا المعطف موضوع المشكلة .

وبطبيعة الحال فقد كان هؤلاء الأصدقاء والزملاء لا يعرفون شيئا عن هذه المشكلة التى نشأت بين ألبرت وأبيه .. ولا يعرفون شيئا أيضا عن مشاعر ألبرت نحوهم ، وقراره بعدم ارتداء المعطف الشتوى لأنهم لا يستطيعون أن يمتلكوا معطفا مثله ..

وظلت مشكلة هذا المعطف الشتوى مستمرة لفترة طويلة ، حتى أصبح المعطف فى النهاية أصغر من مقاس جسم ألبرت . وبالتالى فقد أصبح مناسبا لأخيه الصغير .. !

٣ ــ وفى المدرسة

كل زملائه فى المدرسة كانوا يحبونه حبا جما ٠٠ وعندما شعروا بأنه كان يغضب عندما يطلقون عليه لقب « الجنتلمان الصغير » ٠٠ أصبحوا يصرون على المزاح معه والمناداة عليه دائما بهذا اللقب ٠٠

ولم يكن ألبرت على درجة كبيرة من الذكاء أثناء فترة الدراسة ٠ بل وكان يبدو سارح الذهن فى أشياء أخرى غير ما يدور فى الفصل أثناء شرح الدروس ومذاكرتها ٠

وكثيرا ما كان يقول لوالديه أن هذا الولد أو ذاك

أفضل منه فى معرفة الدروس وفهمها ·· وأنه لا يتميز عن الآخرين الا بطول قامته وقوة بنيته وبأن الجميع يحبونه دون استثناء ··

ولكن هناك شيئا فى غاية الأهمية كان يتميز به ألبرت عن كل أقرانه ·· الموسيقى !

فعندما كان فى سن الخامسة بدأ أبوه يعلمه العزف على البيانو الذى كان لديهم بالبيت ·· وبعد فترة قصيرة أجاد العزف وأجاد قراءة النوتة الموسيقية ·· وحين بلغ الثمانية بدأ يتعلم العزف على الأرغن، فأجاده اجادة تامة ، لدرجة أنه حين بلغ التاسعة من عمره ، أصبح يستطيع أن يحل محل عازف الأرغن فى الكنيسة التى يعمل بها أبوه ··

وفى سن التاسعة أيضا ، انتقل ألبرت الى المدرسة الثانوية التى كانت تقع فى قرية تبعد عن بيته عدة أميال ·· وكان عليه أن يمشى هذه الأميال على قدميه كل يوم للذهاب الى المدرسة والعودة منها ·· ولكنه كان يتمتع فعلا بهذا المشوار الطويل لأنه كان

يحب التجول كما يحب أن ينفرد بنفسه أوقاتا طويلة برغم حبه للناس الآخرين ·

وقد لاحظ زملاؤه فى تلك المدرسة الجديدة أن من السهل اضحاكه ·· وكان يضحك طويلا وبصوت مرتفع ·· ولذلك فقد كانوا يحرصون دائما على فعل كل الأشياء التى تضحكه حتى أثناء وجوده فى الفصل ·· لدرجة أن المدرس وضع علامة سوداء على كراسته عقابا له على ضحكه أثناء الدرس ··

ولذلك أطلق عليه زملاؤه لقبا جديدا هـــو ·· شفايتزر « الضاحك » ·· !

٤ ـ حب الحيوانات

ومنــذ أيام الطفولة ـ كان ألبرت يعطف ويحب جميع الحيوانات الصغير منها والكبير على حد سواء ٠٠ وكان لا يطيق أن يرى تعرض هذه الحيوانات لأى أذى أو سوء معاملة ٠

وفى احدى المرات شاهد حصانا مريضا هزيلا يجر احدى العربات الثقيلة فى شوارع القرية ٠٠ وكان سائق العربة ينهال بالعصا على ظهر هذا الحيـــوان المسكين ليحثه على السير ٠٠ وظل ألبرت متألما من هذا المنظر الذى علق بذهنه لأسابيع طويلة ٠٠ وحين كان

يتأهب للنوم ، كان هذا المنظر يمر بذهنه فيبدد النوم من عينيه ‥ وكان يتعجب حين يسمع صلوات أبيـــه لكي تسود المحبة والرحمة بين الانسان وأخيه الانسان دون ذكر الحيوانات التي كان يراها تستحق المحبـــة والرحمة تماما مثل الانسان ٠

لذلك ، ففي كل مرة كان يتأهب فيها للنوم ‥ كان يؤدي صلاة خاصة به يقول فيها : « وارحم يارب كل كائن يتنفس ‥ واحفظه بعيدا عن شرور الناس وأذاهم ‥ ودع كل الحيوانات تعيش في سلام وتنام في سلام » ‥

وفي احدى المرات مر ألبرت بتجـــربة كاد أن يتعرض فيها لتوقيع الأذى على بعض الطيور ‥ حين أغراه ولد صغير من زملاء المدرسة اسـمه هنري بأن يشترك معه في احد الألعاب ‥ فقد جاءه صديقه هنري هذا وهو يمسك في يديه « نبلة » مصنوعة من فـرع شجرة صغير وقطعة من « الأستك » ‥

وقال هنرى :

ـ شفايتزر ·· أنظر ماذا صنعت !

وأعطاه «النبلة» فأخذ ألبرت يتفحصها وأعجب بها **وقال لصديقه :**

ـ نبلة جيدة ·· ليتنى أمتلك واحدة مثلها !

فقال هنرى ببساطة :

ـ لقد صنعتها بسهولة ·· وتستطيع أنت أيضا أن تصنع واحدة أخرى ·· هيا الآن !

وأخذ الصبيان يبحثان بين فروع الاشجار الجافة على قطعة صغيرة مناسبة تصلح لصـــناعة النبلة ·· وجهزاها أيضا بقطعة من الأستك ·· وأصبحت النبلة الجديدة صالحة للاستعمال ·· **عندئذ قال هنرى :**

ـ والآن ·· هنا نصعد الى أعلى التل لنصـطاد الطيور الجميلة التى تمتلىء بها أغصان الشجر !

وصعدا الصبيان الى أعلى التل ٠٠ ووقفا تحت الأشجار ٠٠ وكانت هناك مجموعة كبيرة من الطيور الصغيرة صفراء الريش ، وعلى رأسها ريش صغير أحمر ٠٠ وكان منظرها جميلا ويبعث على البهجة ٠٠

وعندئذ قال هنرى :

ــ أنظر الآن الى ما سوف أفعله !

والتقط هنرى حصاة كروية الشكل ووضعها فى النبلة وبدأ يجذب « الأستك » ويصوب قذيفته صوب أحد الطيور الصغيرة الجميلة ٠ ولكن فجأة دقت أجراس الكنيسة ، وتردد صدى رنينها فى جميع الانحاء ٠٠ وكان صدى الرنين يختلط بتغريد الطيور الجميلة وهى تتنقل مبتهجة بين غصن وآخر ٠٠

وعندئذ تذكر ألبرت صوت أبيه وهو يتلو الموعظة فى صلوات ايام الأحد ٠٠ « لا تقتل ! » ٠٠ وفى سرعة البرق بدأت هذه الوصية تتردد فى ذهن ألبرت ٠٠ كما لو كانت تحذره من أن يرتكب جريمة القتل ٠٠

وفى لمح البصر أخذ ألبرت يصيح بصوت مرتفع ويصفق بيديه بشدة ·· فانزعجت جميع الطيـــور وطارت من فوق أغصان الشجر ·· وهنا فقط ارتاح قلب ألبرت حين رأى الطيور الجميلة وقد أنقذت ·· أو على الأقل انقذ الطائر الصغير الذى كان هنرى يصوب قذيفته اليه ·· وبعد ذلك أخذ ألبرت يجرى بسرعـة عائدا الى البيت ، بعد أن تخلص أيضا من النبلة التى اعتبرها أداة من أدوات القتل ·

ومنذ ذلك اليوم ، لم يشترك ألبرت اطلاقا مـع اصدقائه أو زملائه فى صيد الطيور أو صيد الاسماك أو أية لعبة أخرى تؤدى الى ازهاق روح أى طـائر أو حيوان ··

ومرت الأيام والشهور والبسنين ·· وكان ألبرت شفايتزر لا يحصل على درجات عاليـة فى الامتحانات او أثناء العام الدراسى ·· وحين أحس بأن أبويه كانا يحزنان بسبب ذلك ، وعدهما بأن يجتهد فى حفـظ ومذاكرة دروسه جيدا ليرضيهما ·· وبالفعل فقد أقبل

على الدراسة بهمة زائدة حتى بالنسبة لبعض العلوم التى كان لا يحبها .. أما أحب العلوم وأقربها الى قلبه فقد كان علم التاريخ .. !

٥ ــ الموسيقى

واصل ألبرت شفايتزر دراسته للموسيقى،ولكنه لم يواظب على التمرين المستمر ، كما أن عزفه كان خاليا من الاحساس الذى يجب ان يتوافر لدى عازف الموسيقى المتمرس ٠٠ ولكن ربما اتخذ ألبرت هـــذا الموقف بسبب اقتناعه بأنه « ولد » ولذلك فيجب ألا يظهر مشاعره الداخلية الحقيقية مثلما تفعل البنات ٠٠ وبطبيعة الحال فقد كانت هذه فكرة خاطئة وكان مــن الواجب أن يتخلص من آثارها ٠٠

وفى احدى المرات بينما كان يتلقى درســـه

الموسيقى ، ويقوم بعزف احدى القطع الموسيقية أمام استاذه عزفا خاليا من الاحساس .. فقد الاستاذ أعصابه وعنفه قائلا :

ـ انك لا تستحق أن تعطى هذه الموسيقى الرفيعة لتعزفها بتلك الطريقة الخالية من الاحساس !

ثم أعطاه الاستاذ مقطوعة اخرى ليتمرن عليها حتى الاسبوع التالى ، وقال له :

ـ خذ هذه المقطوعة .. وسأسمع عزفك لها فى الحصة القادمة .. واذا لم يكن لديك احساس بالموسيقى .. فانى لن أستطيع ان ساعدك بعد ذلك !

وفى أثناء عودته الى البيت بعد انتهاء درسه الموسيقى .. كان ألبرت يفكر فى قرارة نفسه : « اذا لم يكن لديك احساس بالموسيقى .. ماذا يظن بى الاستاذ .. هل يظن أنى مجرد من الاحساس .. ألا يعرف أن الموسيقى هى أفضل متعاتى ؟! » ..

وظل ألبرت يتمرن على عزف المقطوعة التى أعطاه

الاستاذ نوتتها الموسيقية ‥ واستمر التمرين **يوما** وراء يوم بكل عناية واستغراق ‥ وفى نهاية الاسبوع ذهب ليعزفها أمام الاستاذ ٠

وقال الأستاذ وهو يستقبله :

ـ هاه ‥ أرنى كيف ستشوه هـــذه المقطوعة بعزفك الخالى من الاحساس !

وعزف ألبرت المقطوعة بدقة واحساس سليم ‥ وما أن انتهى من العزف حتى **قال له الأستاذ :**

ـ شكرا ‥

ولم يقل أية كلمة أخرى ‥ ولكن الأمور تغيرت منـــذ تلك اللحظة ‥ حيث بدأ الأستاذ يفتح آفـــاق الموسيقى الرفيعة أمام تلميذه ‥ وجعله يمزج حاسيسه ومشاعره بالجمل الموسيقية التى يعزفها ‥

ومنذئذ تمـــكن حب الموســـيقى من قلب ألبرت شفايتزر ‥ وكانت موسيقى « باخ » المؤلف الألمانى الشهير ، هى أقرب المؤلفات الموسيقية الى قلبه ‥

خصوصا المؤلفات التى كتبها هذا الموسيقى العظيم لتعزف على آلة الأرغن .. !

٦ ـ الامتحانات المدرسية

كان ألبرت شفايتزر قد بلغ الثامنة عشرة من عمره حين انتهت دراسته بالمدرسة الثانوية .. وكانت نتيجة امتحاناته النهائية سارة بالنسبة له وبالنسبة لأصدقائه ..

كان حينئذ يعيش فى منزل عمه الذى يقع فى قرية تبعد قليلا عن « جونزباخ » وذلك لكى يصبح قريبا من مقر المدرسة الثانوية . **وعندما اقترب موعد الامتحانات النهائية قالت له زوجة عمه :**

ـ لا تنس ان تقاليد المدارس الثانوية هنا تحتم

على الأولاد أن يرتدوا معاطف سوداء وبنطلونات سوداء ذات أشرطة ، وذلك حتى يتمكنوا من دخول الامتحانات النهائية ..

فقال البرت :

ـ لدى معطف اسود .. ولكنى لا أملك بنطلونا اسود ..

فقال زوجة العم بحزم :

ـ اذن يجب ان نشترى بنطلونا أسود فورا ..

وقال البرت :

ـ مستحيل .. لأن والدى لا يمتلك فائضا من النقود لشراء ملابس جديدة .. كما أن البنات وحدهن هن اللاتى يرغبن فى ارتداء الملابس الجديدة ..

ونظر الى عمه وقال :

ـ ما رأيك يا عمى .. هل يمكنك أن تقرضنى بنطلونك الاسود .. ؟!

فقال العم بدهشة وهو يرفع عينيه من الجريدة التي يقرأها :

ـ أقرضك بنطلوني ؟! ٠٠ على العموم فلا مانع لدى اذا كان البنطلون على مقاسك ٠٠ عليك أن تجربه أولا ٠٠ !

ونظرا لأن ألبرت لم يكن يهتم كثيرا بموضوع الملابس ، فلم يجرب ارتداء بنطلون عمه ليرى كيف تكون النتيجة ٠ وفى صباح يوم الامتحان تمت التجربة وكانت النتيجة مضحكة للغاية ٠٠ فقد كان ألبرت نحيفا طويلا ، بينما كان عمه بدينا وقصيرا ٠٠ ولذلك

فان البنطلون لم يصل الا الى منتصف ساقيه ٠٠ أما فى منطقة الوسط ، فقد كان البنطلون يتسع لشخصين آخرين فى حجم ألبرت !

ولكن لم يكن هناك وقت للتصرف ، وذهب الى الامتحان بهذا الشكل المضحك ٠٠ وبرغم أن جميع الطلبة من زملائه كانوا متوترين وقلقين وأعصابهم مشدودة بسبب الامتحان ، الا أنهم جميعا انفجروا في

الضحك حين رأوا ألبرت قادما نحوهم وهو يرتدى هذا البنطلون العجيب !

وقد اجتاز الامتحانات التحريرية والشفوية بنجاح ، وحاز فى علم التاريخ درجات عالية .. وأصبح الآن جاهزا للدراسة الجامعية .

والتحق ألبرت بجامعة ستراسبورج .. وواصل دراسته الجامعية أيضا أثناء أدائه للخدمة العسكرية لمدة عام كامل .. وبينما كان الجنود من زملائه يقضون أوقات فراغهم فى اللعب أو الأحاديث السارة ، كان ألبرت يقضى هذه الأوقات منهمكا فى الدراسة وقراءة الكتب والمراجع .

٧ ـ الموسيقى مرة أخرى

وفى خريف عام ١٨٩٣ ، زار ألبرت باريس لأول مرة . وعاش لفترة فى بيت أحد أعمامه .. وكان هدفه الرئيسى من زيارة باريس هو رؤية آلات الأرغن الضخمة ومقابلة عازفى الأرغن المشهورين .

وقد ساعدته زوجة عمه فى مقابلة « المسيو فيدور » وكان من أشهر عازفى الأرغن الفرنسيين وهيأت له الفرصة فى أن يعزف أمام هذا العازف الشهير ليرى ان كان عزفه للأرغن يستحق الاستمرار فيه أم لا ..

وكان أول سؤال وجهه اليه مسيو فيدور :

. هاه .. ماذا ستسمعنى ؟!

فقال البرت :

ـ مقطوعات من موسيقى باخ .. طبعا !

وجلس ألبرت على مقعد آلة الأرغن .. وكانت اضخم وأفخم آلة شاهدها من قبل .. وبدأ العزف .. وانغمس فى الموسيقى بكل مشاعره وأحاسيسه وانفعالاته .. ونسى كل شىء حوله عدا نغمات الموسيقى وهى تتلاحق فى الخروج من الأرغن ..

أما مسيو فيدور ، فقد نسى أيضا أنه يستمع الى عزف عازف ريفى مجهول .. وانغمس بدوره فى سماع الموسيقى والاستمتاع بأنغامها .. وتأكد لديه أن هذا العازف القادم من الريف يملك الامكانيات الفنية لعازف قدير . **وما أن انتهى البرت من العزف حتى بادره مسيو فيدور قائلا :**

ـ عظيم .. ولكن كيف سترتب أمورك لحضور الدروس التى أنوى أن أعلمك اياها .. ؟!

وكان هذا السؤال بداية لصداقة عظيمة استمرت بينهما الى آخر الحياة ٠٠ وكلما جاء ألبرت الى باريس كان يتلقى دروسه فى الموسيقى على يدى العازف الشهير الكبير مسيو فيدور ٠٠ وعندما كان يتوفر لديه بعض المال ، كان يدفع أجر تلك الدروس ٠٠ وحين لا يتوفر المال ، كان يتلقى دروسه بلا مقابل ٠٠

٨ ـ القرار العظيم

وفى سن الحادية والعشرين ، اتخذ ألبرت شفايتزر قرارا هاما يتعلق بمستقبله ٠٠ ففى فترة العطلة الصيفية كان يعود الى قريته الصغيرة « جونزباخ » ٠٠ وانتهز فرصة الهدوء فى جو القرية ليفكر فيما عساه أن يكون فى مستقبل حياته ٠٠

هل يصبح أستاذا بالجامعة يلقى المحاضرات ويؤلف الكتب ؟ ٠٠ أم يصبح قسا فى كنيسة احدى القرى مثل والده ؟ ٠٠ أم يصبح عازفا شهيرا مثل صديقه مسيو فيدور ؟ ٠٠ ان اتخاذ مثل هذا القرار

يثير حيرة الشباب فى هذا السن ..

واستيقظ مبكرا فى صباح أحد الأيام ، وأطل من نافذة الغرفة فرأى الريف الجميل فى بهائه وروعته .. **فقال لنفسه :**

ـ بأى حق أستحق أن أمتع نفسى بكل هذا الجمال وأشعر بكل هذه السعادة .. فى حين أن العالم مفعم بالشقاء والأشياء المؤلمة التى تثير الأحزان .. ؟!

فى طفولته كان لا يطيق ان يرى طيرا حبيسا فى قفص .. ولكنه الآن أصبح يدرك أن كثيرا من الناس يتعذبون ويعانون من أوضاع حياتهم .. **وعاد يقول لنفسه من جديد :**

ـ هأنذا فى الحادية والعشرين من عمرى .. قوى مثل الحصان .. سعيد فى بيتى وبين أهلى .. وأحب عمل .. وقريتى .. وأصـــدقائى .. وكتبى .. وموسيقاى .. فبأى حق أتمتع بكل هـذا القدر من السعادة .. ؟!

ومر بذهنه شريط طويل من الذكريات : سمع

كلمات صديقه جورج حين تعارك معه فى أحد أيام الطفولة وهو يقول له « لو كنت أستطيع أن أتناول الحساء ولو مرتين فى الاسبوع لأصبحت قويا مثلك ! » ٠ كما سمع كلمات صديقه هنرى حين قال : « فلنصعد الى أعلى التل لنصطاد الطيور ! » ٠٠ كما شعر بكل تلك الدوافع القديمة التى جعلته يشعر بالرحمة والشفقة على كل الكائنات الضعيفة التى تحتاج العون والمساعدة ٠

وعاد يقول لنفسه مرة أخرى :

ـ لقد كنت دائما من المحظوظين ٠٠ ولكن ماذا عن الناس الآخرين ٠٠ لقد حاولت أن أنساهم وأعيش حياتى الشخصية الخاصة ٠٠ ولكنى رأيت ان هذا العمل يتسم بالأنانية البغيضة ٠٠ وأصبحت لا أستطيع أن أشعر بطعم السعادة بينما العالم من حولى يعانى من متاعب الحياة ٠٠ !

وفى ذلك الصباح الجميل المبكر لأحد إيام الصيف ، اتخذ البرت شفايتزر القرار التالى : « فليظل

حتى الثلاثين من عمره متفرغا للدراسة وللموسيقى ٠٠ ثم يهب بعد ذلك حياته كلها لخدمة الآخرين » ٠٠

وعندما ارتدى ملابسه وخرج ليتمشى قليلا قبل أن يحل موعد افطاره ٠٠ أحس بهدوء نفسى شديد بعد أن اتخذ هذا القرار ٠٠

وفى خلال السنوات التسع التالية ، أكمل شفايتزر تعليمه الجامعى ، وبدأ يؤلف بعض الكتب منها كتابين عن الموسيقى الألمانى « باخ » ٠٠ وأخذ يلقى بعض المحاضرات فى جامعة ستراسبورج ، بل وأصبح عميدا لاحدى الكليات ، كما أصبح قسا فى احدى الكنائس ، كما حرص على عزف الأرغن بانتظام .

وكانت حجرة المكتب فى بيته ممتلئة بالكتب والأوراق التى كانت تأخذ كثيرا من وقت السيدة العجوز التى تخدمه حتى تنظفها وتعيد ترتيبها ٠٠ ولكن السيدة كانت مع ذلك سعيدة لأنه لم يعترض اطلاقا على أى طعام تضعه أمامه ٠٠ كما لم يعترض يوما لأن ملابسه لم تصلح كما يجب ٠٠

وعلى مدى سنوات طويلة كان شفايتزر يفكر فى نوع العمل الذى سيتخصص فيه بقية حياته . وقد انضم الى مجموعة من الشبان والشابات جعلوا أنفسهم فى خدمة الفقراء فكانوا يزورون عددا كبيرا من العائلات الفقيرة لمساعدتها وتلبية احتياجاتها .

وقد تعرف شفايتزر على احدى الشابات من ضمن أعضاء هذه المجموعة ، وعقد معها أواصر الصداقة ، ثم تزوجها فيما بعد .

ومرت السنوات حتى بلغ شفايتزر سن التاسعة والعشرين .. وفى احدى الامسيات ، عثر فى مكتبة على احدى الجرائد التى يبدو أن شخصا ما قد نساها هناك .. وفى هذه الجريدة قرأ مقالا يصف الحالة البائسة التى يعيش فيها قبائل الزنوج من سكان الكونجو ووسط افريقيا .. حيث ينتشر الجوع والمرض .. وحيث توجد مناطق شاسعة تمتد مئات الأميال ، لا يوجد فيها طبيب واحد .

وفى تلك الامسية ، اختار ألبرت شفايتزر هدف

حياته المستقبلة ٠٠ لا بد أن يذهب الى افريقيا ليساعد أهلها ٠٠ وما دام هؤلاء الأهالى يحتاجون الى الرعاية الطبية ، فلا بد أن يذهب اليهم كطبيب ليعالج أمراضهم بقدر ما يستطيع ٠٠ !

واندهش أصدقاؤه جميعا حين سمعوا هذا القرار المفاجىء ٠٠ فهذا رجل فى امكانه ان يعيش سعيدا فى أوربا ٠٠ وفى استطاعته أن يصبح طبيبا أو أستاذا جامعيا أو كاتبا أو عازفا للأرغن ٠٠ ولكنه اختار أصعب طرق الحياة ٠٠ اختار ان يدفن نفسه بين القبائل الافريقية السوداء التى تعيش فى مناطق موبوءة بأخطر الأمراض ٠٠

قال بعض أصدقائه أن هذا القرار يدل على الهوس والجنون ٠

وقال صديقه مسيو فيدور :

ـ ولكن لماذا يا ألبرت تذهب الى افريقيا كطبيب وانت لم تدرس الطب بعد ٠٠ فلتذهب الى هناك كواعظ دينى ٠٠ وهو عمل أنت مؤهل له خير تأهيل ٠٠

واجابه شفايتزر :

ـ ان الناس هناك ليسوا فى حاجة الى الكلام .. انهم يحتاجون الطعام والعلاج الطبى .. وما فائدة أن تحدث مثل هؤلاء الناس عن عقيدة أو دين يقوم على المحبة ، دون أن تثبت لهم ذلك بطريقة عملية .. ؟!

٩ ـ دراسة الطب

وعلى مدى السنوات الخمس التالية ، انغمس شفايتزر فى دراسة الطب ·· وكانت دراسة صعبة مضنية ، ولكنه ظل مواظبا عليها ومجتهدا فيها حتى اجتاز الامتحانات النهائية بنجاح كبير ·· ثم قضى سنة أخرى للتدريب فى احدى المستشفيات ·· ولجمع النقود اللازمة للمستشفى الذى ينوى اقامته فى افريقيا ·· !

وعاونه بعض الأصدقاء فى جمع التبرعات ، كما أقام عدة حفلات كان يعزف فيها على الأرغن ، وكان

يخصص دخل هذه الحفلات لمشروع المستشفى ..

وفى خلال تلك الفترة تزوج بالشابة التى أحبها .. والتى كانت تتمرن بدورها على مهنة التمريض أثناء دراسة زوجها للطب ..

وقبل أن يصبح الزوجان مستعدين تماما للسفر، قضيا بضعة أسابيع فى شراء كل الاحتياجات الخاصة بمشروع المستشفى .. وفى النهاية ، عندما حل ربيع عام ١٩١٣ ، إستقل الزوجان ظهر السفينة التى رحلت بهما الى سواحل غرب افريقيا .. وكان عمر شفايتزر آنئذ ، ثمانية وثلاثين عاما ..

١٠ ـ الوصول الى أفريقيا

وصلت السفينة الى ميناء صغير يقع عنده مصب نهر « أوجو وى » ٠٠ ومن هناك استقل الزوجان قاربا نهريا ظل يبحر بهما صعودا مع مجرى النهر لمدة يومين كاملين ٠٠ وكانت الغابات الكثيفة تحيط بشـــاطئى النهر ٠٠ وكان الجـو حارا ورطبـا طول الوقت سواء أثناء الليل أو أثناء النهار ٠٠

وعندما وصل القارب النهرى الى مشارف القرية الافريقية التى اختارها شفايتزر لاقامة مستشفاه ٠٠ وكانت قرية صغيرة تسمى « لامبارينى » ٠٠ تجمع

حوله مجموعة من الأهالى السود .. يركبون قوارب بدائية مصنوعة من جذوع الأشجار ، ويستخدمون قطعا طويلة من الخشب كمجاديف ..

وأحاطت هـذه المجمـوعة من القوارب البدائية بالقارب النهرى الذى كان يركبه الزوجان شفايتزر .. وكان الأهالى يجدفون وهم يغنون فرحين : هوبا .. بوبا .. هوبا .. بوبا .. تسوت تسوت .. هوبا .. بوبا .. هوبا .. بوبا ..

وأخيرا وصـل الركب الى منطقة تشبه خليجا صغيرا يحيط به تل منخفض ، تتناثر عليه مجموعة من الأكواخ الفقيرة .. وفى هـذه المنطقة عاش شفايتزر وزوجته لسنوات طويلة .

وسرعان ما انتشرت فى أرجاء الغـابات المحيطة الأنباء السارة بوصول أحد الأطباء الى قرية «لامبارينى» .. وسرعان ما تجمع المرضى من كل صوب .. قادمين نحو القرية زرافات ووحـدانا .. حتى قبل وصول القارب النهرى الذى يحمل المعدات الطبية التى أحضرها الزوجان ..

وفى كل صباح ، عندما كان شفايتزر يخرج من مسكنه ·· كان يرى عشرات من المرضى الذين حضروا منذ الصباح المبكر ، وقد جلسوا على الأرض فى انتظاره ·· عشرات من الافريقيين الذين يعيشون فى اعماق الغابات ·· من الشيوخ والنساء والرجال والشبان والشابات والأطفال الصغار والأطفال الرضع ·· وكانوا جميعا يعانون من أمراض عدة بسبب الجو غير الصحى وبسبب سوء التغذية وقلة الطعام الذى يتناولونه ·

وقال له أحد هؤلاء الشبان المرضى :

ـ اننا جميعا نشكو من المرض ·· كل فرد يعيش فى هذه البلاد لا بد أن يكون مريضا بمرض ما ··

وقال أحد رؤساء القبائل :

ـ ان الأرض تأكل أطفالنا ·· !

ولم يمر وقت طويل ، حتى أصبح شفايتزر هو الملاذ الوحيد لراحة الأهالى ·· بل كانوا يستريحون بمجرد النظر الى وجهه ·· وكانوا يقصدونه من مختلف

المناطق ، بل ومن مناطق تبعد عن قرية « لامبارينى » بمئات الأميال ..

وعندما وصلت الأدوات والمعــــدات الطبية التى استحضرها معه ، لم يكن هناك مكان مناسب لحفظها ؛ وظل يباشر علاج مرضاه فى العراء والهواء الطلق .. ولكن عندما ابتدأت الأمطار الغزيرة تنهمر من السماء ، قام بتنظيف عشة واسعة كانت مســــتخدمة فى تربية الدجاج ، وجعلها مقرا يستقبل فيه مرضاه ..

وفى خلال الشهور الأولى التالية على وصوله الى افريقيا .. كانت زوجته تعاونه فى عمله الى جانب قيامها بالاشراف على أعمال البيت .. وكانت بمجرد الانتهاء من هذه الأعمال ، تسرع بالذهاب الى عشة الدجاج لمساعدة زوجها فى عمل العمليــات الجراحية أو فى الكشــف على المرضى وعلاجهم بمختلف أنــواع الأدوية ..

١١ ـ جوزيف

وشعر شفايتزر بسعادة غامرة حين شاهد ضمن مرضاه السود ، رجلا ذا ملامح ذكية ، ويعرف الكلام باللغة الفرنسية ، وكان يعمل طباخا لدى أحد الرجال البيض ‥ **وقال له شفايتزر :**

ـ هل يمكنك أن تعمل لدينا كطباخ ‥ وأن تساعدنا أيضا فى أعمال المستشفى ؟!

علا البشر وجه الطباخ وابتسم راضيا وهو **يقول :**

ـ نعم يا دكتور ٠٠ أستطيع أن أعاونك فى كل شيء !

هكذا تعرف الزوجان على « جوزيف » الذى عمل معهما لسنوات طويلة بكل اخلاص ٠٠ وكان هذا الرجل الذكى يستطيع التحدث بثمانى لغـــات ٠٠ وكان أمينا وشفوقا وحاذقا ويؤدى عمله دون كلل أو ملل ٠٠ ولكن أغرب شيء فيه أنه كان لا يستطيع قراءة أو كتابة اللغة الفرنسية ، ومع ذلك فقد كان يستطيع ان يحضر أية زجاجة دواء يطلبها شفايتزر ٠٠ وقد سأله شفايتزر فى يوم ما :

ـ كيف تستطيع أن تميز بين زجاجات الدواء وكلها متشابهة ٠٠ وانت لا تعرف قراءة الفرنسية ؟!

وكان جوزيف يرد ببساطة :

ـ انى احفظ فى ذاكرتى شكل الكلمات المكتوبة على كل زجاجة !

وعندما قال جوزيف : « أســـتطيع أن أعاونك

يا دكتور فى كل شيء » ٠٠ كان صادقا مع نفسه ومع الطبيب ٠٠ فقد كان جوزيف يعاون الزوجين فى جميع أعمال المستشفى ٠٠ وكان يترجم لهما ما يقوله الأهالى الذين لا يعرفون سوى لغاتهم ولهجاتهم المحلية ٠٠ وكان يساعد الزوجين فى فهم التقاليد والعادات الافريقية .

وحين كان شفايتزر يغضب بسبب سرقة أحد الأشياء الصغيرة من البيت ، كان جوزيف يشرح سبب السرقة للدكتور وهو يبتسم :

ــ انك لم تغلق عليه جيدا يا دكتور ٠٠ ولذلك فقد ذهب ليتمشى ٠٠ !!

١٢ ـ الحياة فى لامبارينى

وقام أصدقاء شفايتزر فى باريس بشراء بيانو كبير وأهدوه له مرسلا على احدى السفن ٠٠ حتى وصل البيانو أخيرا الى المسكن المتواضع الذى كان يعيش فيه الزوجان شفايتزر فى قرية لامبارينى ٠٠

وظل البيانو منزويا ـ دون أن يمس ـ فى أحد أركان البيت ٠٠ **وكان شفايتزر يقول لزوجته :**

ـ لا ٠٠ لا تسألينى أن أعزف على هذا **البيانو** ٠٠ ان قدومى الى افريقيا معنـــاه نهاية حيـــاتى كعازف **للموسيقى** ٠٠ !

ولكن بمرور الوقت ، بدأ شفايتزر يعزف على البيانو بعد انتهاء عمله بالمستشفى فى احدى الامسيات ٠٠ ومنذ تلك الأمسية بدأ صوت الموسيقى يتردد فى جنبات الغابة ٠٠ وبدأ شفايتزر يجد الوقت الكافى لكى يتعمق اكثر واكثر فى الموسيقى الرفيعة النبيلة التى ألفها الموسيقار الألمانى « باخ » ٠

وبمرور الوقت أيضا ، أصبحت هناك حجرتان نظيفتان تستعمل احدهما للكشف على المرضى ، وتستخدم الأخرى كغرفة عمليات ٠٠ كما جهزت بعض الحجرات الأخرى بالاسرة اللازمة لرقاد بعض المرضى الذين يستلزم علاجهم البقاء تحت اشراف شفايتزر لفترة ٠

وفى الليلة الأولى من افتتاح هذا المستشفى قام شفايتزر بالمرور ليطمئن على راحة مرضاه الراقدين على الأسرة ، ففوجئ بمنظر لم يتوقعه اطلاقا ٠٠ فقد رأى المرضى راقدين على الأرض ، بينما كان أقاربهم أو اصدقاؤهم ينامون فوق الأسرة !! ٠٠ فقام شفايتزر

على الفــور بتصحيح هذا الــوضــع الغريب ، وأخرج الأصحاء من مبنى المستشفى ،وأعاد المرضى للرقاد على الأسرة المخصصة لهم ..

١٣ ـ العمل فى المستشفى

استمر العمل فى المستشفى لمدة طويلة وكان العمل يتحسن باستمرار ٠٠ ولكن الشىء الذى كان يثير الاشفاق هو الحالة البائسة للمرضى الذين كانوا يحضرون الى المستشفى من أماكن بعيدة نائية ٠٠ فقد كانوا جميعاً لا يعرفون شيئا عن العلاج الطبى ٠٠ وكانوا يتعاملون مع الدكتور شفايتزر على أساس أنه ساحر ماهر !

بل لقد اطلقوا عليه اسم « أوجاندا » ومعناه الساحر القدير الذى يعرف جيدا أسرار الأعمال

السحرية . وقالت عنه امرأة عجوز كانت تشكو من مرض بالقلب :

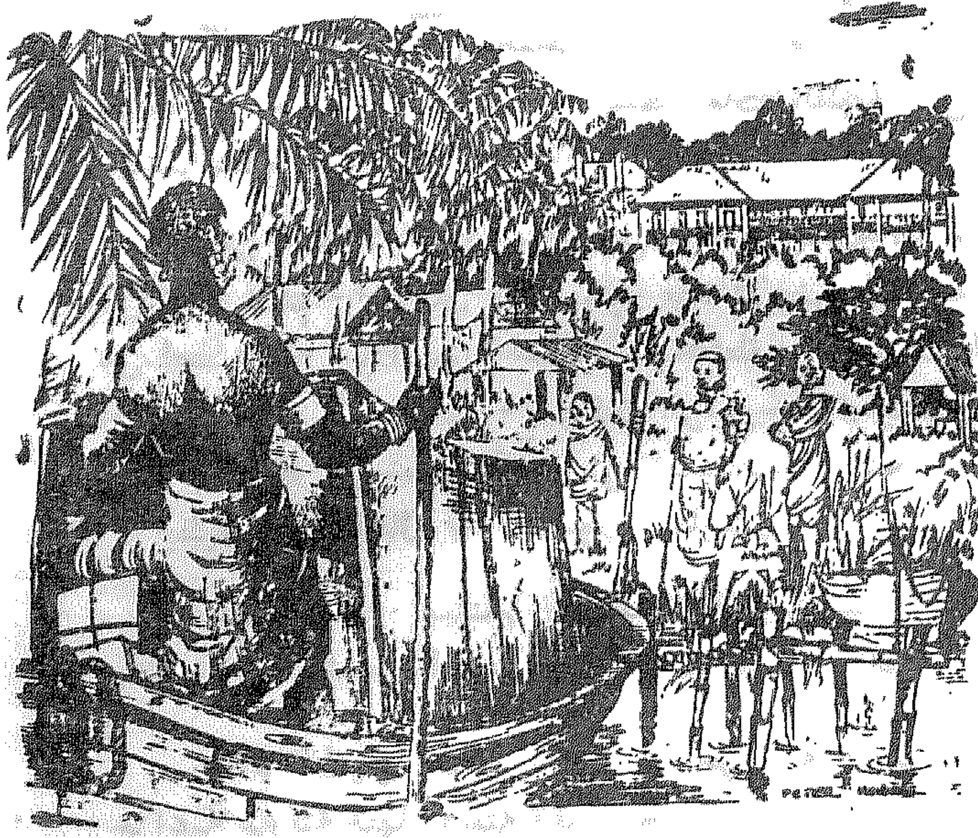
ـ أنه ساحر عظيم .. لقد عرف بسهولة أنى لا أستطيع أن أتنفس جيدا أثناء الليل .. كما عرف أن قدمى تتورمان فى بعض الأحيان حتى قبل أن يرهما بل ودون أن أخبره بذلك .. !

وكان المرضى وذووهم يتعجبون لطريقة التخدير التى كان يقوم بها لمرضاه قبل اجراء العمليات الجراحية ..

وقالت فى ذلك احدى الفتيات :

ـ منذ أن جاء « الأوجاندا » الى هنا .. ونحن نرى أعمالا سحرية غريبة .. انه يقوم « بقتل » المرضى لفترة بسيطة .. وبعد أن « يصلح » اجسادهم يعيدهم الى الحياة مرة أخرى وقد شفوا من أمراضهم !

وبعد مرور نحو تسعة شهور من العمل المتواصل في هذا المستشفى ، كتب شفايتزر لأصدقائه في باريس



المستشفى في لامباريني .

انه قد قام فى خلال تلك المدة بعلاج نحو ألفين من المرضى الذين كانوا يشكون من مختلف أنواع الأمراض ٠٠ وانه لذلك فى حاجة الى المزيد من المستلزمات الطبية لكى يستمر علاج المزيد من الناس ٠

وفى أحد الأيام وصـــل رجل مريض جدا ويصرخ من شدة الألم ٠٠ وكان فى صحبة هذا المريض مجموعة من أصـــدقائه هم الـــذين حملوه من منطقة بعيدة حتى أوصـــلوه الى المستشفى ٠٠ وكان الرجل مازال يصرخ بين حين وآخر من شدة الآلام التى لايستطيع أن يتحملها أو يطيقها ٠٠ **وقال له الدكتور شفايتزر :**

ـ لاتخف ٠٠ ستنام الآن لفترة أقل من ساعة ٠٠ وعندما تستيقظ مرة أخرى ٠٠ لن تشعر بشىء يؤلمك .. !

وقام الطبيب بتخديره ٠٠ ثم أجرى له عمليـــة جراحية عاونته فيها زوجته وقام المخلص جوزيف بتقديم كل المســاعدات الممكنة ٠ وبعد انتهاء العملية ، ظـــل شفايتزر جالسا الى جوار سرير الرجل المريض منتظرا أن يفيق بعد انتهاء مفعول التخدير ٠٠

وبتمهل شديد . بدأ المريض يحرك رأسه ·· ثم فتح عينيه ، وبدأ يتنفس بعمق ، ويدرك الأشياء التى تدور حوله ·· **وفجأة بدأ الرجل يصيح مرة أخرى :**

ـ لقد ذهب الألم ·· لقد ذهب الألم ·· لم أعد أشعر بأى ألم ·· لقد ذهب الألم تماما ·· !!

وكان هذا الرجل نموذجا لغيره من عشرات ومئات المرضى الذين جاءوا الى « الأوجاندا » من مناطق تبعد مئات الأميال ·· قاصدين الشفاء على يديه المباركتين وعطف قلبه الطيب ·· !

١٤ ـ الحرب العالمية الأولى

وفى صيف ١٩١٤ ، فكر الزوجان شفايتزر فى أن يقوما برحلة قصيرة الى أوربا ليستريحا فيهـا من عناء العمـل المتواصل فى المستشفى ، وليستروحـا فيهـا نفسيهما مثلما يفعل غيرهمـا من البيض الذين يعملون فى افريقيا .

ولكن فى منتصف الصيف ، جـاء بعض الجنـود الفرنسيين الى حيث يسكن شفايتزر وزوجته .. وقالوا لهما بخشونة وبطريقة عسكرية :

ـ انتما من اقليم الألزاس .. وقد ولدتمـا فى

منطقة ألمانية .. وانتما الآن تعيشان فى افريقيا الفرنسية .. ونظرا لأن الحرب دائرة الآن بين ألمانيا وفرنسا .. فانتما الآن اسرى لنا .. واعتبرا نفسيكما مقبوضا عليكما .. فلا تغادرا مسكنكما هذا دون اذن منا والا تعرضتما للعقوبة ..

وبالرغم من أن الزوجين قد امتثلا لأوامر هؤلاء الجنود الفرنسيين الا أن الأهالى الافريقيين من المرضى ومن سكان قرية «لامباريني» قد غضبوا لذلك غضبا شديد **وقالوا للجنود :**

ــ لاشأن لكم بطبيبنا الطيب !

وأوشك بعض الأهالى أن يقذفوا الجنود الفرنسيين بالحجارة وقطع الطوب لولا تدخل شفايتزر لمنعهم من ذلك ..

وقد استاء شفايتزر من هذا الوضع الغريب الذى جعل الحرب الدائرة فى أوربا تؤدى الى وقف العمل فى مستشفاه الافريقى .. كما أن الافريقيين أنفسهم أصبحوا لايتصورون كيف يتوقف العمل فى المستشفى

بسبب حرب تدور فى بلاد بعيدة لايعرفون عنهاشيئا ..

وقال رجل افريقى عجوز ينتمى الى قبيلة معروفة بأنها تأكل أعداءها من البشر :

ـ كم رجلا قتل فى هذه الحرب .. عشرة ؟!

فقال شفايتزر :

ـ لا .. لقد قتل عدد كبير من الرجال ... !

وعندئذ قال الافريقى العجوز بدهشة :

ـ فى المعارك التى تدور احيانا بين قبائلنا الافريقية، نلتزم بدفع «دية» لكل قتيل .. فكيف سيدفعون الدية لكل هذا العدد الكبير من الرجال القتلى .. ولماذا لاتجلس القبائل الأوربية مع بعضها للتفاوض فيما بينها مثلما تفعل قبائلنا ..؟!

وبعد فترة صمت تســاءل الافريقى العجوز مرة أخرى :

ـ هل يأكل البيض قتلاهم .. ؟!

فقال شفايتزر :

ـ لا ·· بكل تأكيد !

وعندئذ قال الافريقى العجوز :

ـ اذن فهم يقتلون لمجرد ممارسة القتل والقسوة !

وتنفيذا لأوامر الجنود الفرنسيين ، لزم شفايتزر بيته لا يبرحه·· ووجد عندئذ الفرصة التى كان ينشدها منذ زمن طويل ، وهى أن يجد الوقت الكافى لتأليف كتاب عن « معنى الحياة » ·· ولماذا وجدنا فى هذا العالم ·· وما هى الواجبات والمسئوليات الملقاة على عواتقنا كبشر ··

وظل يكتب ويكتب ، ويصب عصارة فكره وروحه على الورق : « ان عالمنا شديد الشبه بقارب قديم يتعرض للغرق ·· وان واجبى ان أساعد فى بناء قارب جديد يستطيع أن يعبر بنا رحلة الحياة » ··

ولاحظ شفايتزر ان الطبيعة وجميع الكائنات حوله

تصارع من أجل استمرار الحياة ·· كل نبات أو حيوان في الغابة يصارع من أجل بقائه واستمراره ·· تماما مثلما يفعل الانسان ·· « فهل معنى ذلك أننا اذا أردنا أن نعيش ونواصل الحياة ، فان علينا أن نصارع بعضنا بعضا وندمر بعضنا بعضا ؟! » ·

وأخذ شفايتزر يفكر في تلك المشكلة الى أن اقتنع في النهاية بأن الحياة مقدسة ·· وأن واجبنا ان نحافظ على قدسيتها · وكتب يقول :

« يجب أن نحترم الحياة ·· واذا احترم الانسان فكرة الحياة ·· فلن يقدم ـ بدون تفكير هكذا ـ على تدمير حياة أى كائن آخر ، سواء أكان انسانا أم حيوانا أم حشرة أم زهرة أم حتى ورقة صغيرة من أوراق الشجر » ·· !

١٥ ـ العودة الى أوروبا

وفجأة ٠٠ فى خريف عام ١٩١٧ ، حدثت تطورات مؤسفة ٠٠ فقد أمر الزوجان بالتوجه الى فرنسا فيوضعا فى أحد معسكرات الاعتقال باعتبارهما منتميين الى دولة عدوة ٠٠ وقد حزن أصدقاؤهما السود حزنا عظيما لوداعهما ٠

وبمجرد وصولهما الى فرنسا وضعا فى أحد معسكرات الاعتقال المكتظه بمعتقلين عديدين من أمم وشعوب شتى ٠٠ ونظرا لأن شفايتزر كان الطبيب الوحيد بين كل هؤلاء المعتقلين ، فقد أخذ على عاتقه

العناية بجميع المرضى فى هذا المعسكر ..

وقد أتاح له ذلك أن يتحادث مع عدد كبير من الناس .. تحدث معهم عن حياتهم وعن المهن التى كانوا يعملون بها قبل تعرضهم للاعتقال ، وعن آرائهم وخبراتهم فى الحياة .. وقد استفاد شفايتزر من هذه الأحاديث فائدة كبيرة ، واختزن فى ذهنه مجموعة كبيرة من المعلومات الثمينة التى استفاد منها فى المستقبل .

وفى الربيع التالى ، تم الاتفاق بين كل من ألمانيا وفرنسا على تبادل الأسرى .. وكان من نتيجة هذا الاتفاق أن اطلق سراح الزوجين شفايتزر وعادا الى موطنهما الأول بقرية جونزباخ التى تقع باقليم الألزاس .

وهناك علم شفايتزر بمقتل أمه بسبب الحرب . كما رأى أباه مازال يواصل عمله بهدوء فى كنيسة القرية .. أما القرية نفسها فقد سلمت من ويلات الحرب ولم يحدث بها أى تدمير يذكر ، وذلك بالرغم

من وقوع القرية في وسط ساحات القتال والمعارك الحربية . وكان السبب فى ذلك أن المنطقة التى تقع فيها القرية كانت محمية بمجموعة من التلال . وفى نهاية الحرب أصبح اقليم الالزاس تابعا لفرنسا مرة أخرى .

وخلال تلك الفترة شعر شفايتزر بالمرض ، واجريت له عمليتان جراحيتان أصيب بعدهما ببعض الضعف لفترة من الزمن .. وكان عليه فى تلك الفترة أن يبحث عن الاجابة الدقيقة لسؤال كان يلوح فى ذهنه باستمرار : « والآن .. ماذا سوف يصنع .. وكيف سيكون مستقبله ؟! » .

كان عليه أولا أن يقوم بتسديد ديونه التى اقترضها لدفع تكاليف العمليتين الجراحيتين .. وكذا الديون التى اقترضها لشراء المعدات والمستلزمات الطبية لمستشفاه فى قرية لامبارينى بافريقيا ..

وفى نفس الوقت فقد كان فى امكانه أن يجد أعمالا مناسبة فى أوربا حيث كان معروفا بأنه كاتب

وطبيب وعازف موسيقى وأستاذ محاضر بالجامعة · وقد ألح عليه الكثيرون من اصدقائه وأقاربه أن يبقى فى أوربا ليمارس أحد هذه الأعمال أو ليمارسها كلها · وقد عرض عليه بالفعل أن يصبح أستاذا محاضرا فى احدى جامعات سويسرا ·· كما أن زوجته لم تكن قد استردت صحتها بعد نتيجة للجهود الشاقة والحياة الصعبة التى عاشتها فى افريقيا ·· بالاضـــافة الى أنه رزق بطفلة تستحق العناية بها ·

وفى نفس الوقت أيضا ، كانت تصــله خطابات ونداءات من قرية لامبارينى بأفريقيا : « دكتور ·· ان الأهالى هنا ينتظرون وصولك بفروغ صبر ! ·· دكتور ·· ان الناس هنا يحتاجون اليك ! ·· نرجوك أن تعود الى لامبارينى ! » ·

أما مشكلة الديون والنقود ، فقد حلها شفايتزر بطريقة مناسبة ·· حيث قام بعدة جولات فى مختلف بلدان أوربا ·· عزف فيها على الأرغن ·· وألقى فيها الأحاديث والمحاضرات التى وصف فيها الأحوال البائسة

للافريقيين ٠٠ ووصف فيها مستشفاه الذى أقامه فى قرية لامبارينى ٠٠

وكان الناس يتجمعون فى تلك الحفلات العـامة ليستمعوا الى موسيقاه بشغف ٠٠ ويستمعوا الى أحاديثه ومحاضراته بشغف أكثر ٠٠ وبالاضافة الى اسـتمتاع الناس بكل ذلك ، فقد لاحظوا أيضا أنهم أمام طـراز غير عادى من الرجال ٠٠ أمام انسان وهب نفسه وحياته لخدمة الآخرين ٠٠ وله قلب رحيم مملوء بالمحبة واحترام الحياة فى كافة مظاهرها ٠٠

١٦ ـ فى أفريقيا مرة أخرى

وبعد احدى عشرة سنة من وصوله الى افريقيا لأول مرة ٠٠ وجد شفايتزر نفسه راكبا فى أحد القوارب النهرية ٠٠ صاعدا مرة أخرى فى مجرى نهر « أوجووى » ٠٠

ولكن زوجته لم تكن معه فى هذه المرة ، وانما كان يصاحبه أحد طلاب الطب ليساعده فى أعماله بالمستشفى ٠

ووصل القارب الى لامبارينى ٠٠ وصعد شفايتزر

الى التل ليرى ماذا صنع الزمن بمستشفاه .. ولكن ماذا رأى ؟ .. لقد زالت معظم البيوت والحجرات تحت وطأة وجبروت الغابات الافريقية .. وامتلأت الأرض بالاعشاب الطويلة والأشجار الضخمة التى لم تكن موجودة من قبل !

ولم يضيع شفايتزر الوقت ، فشرع على الفور فى البحث عن عمال لمعاونته فى ازالة الحشائش وقطع الأشجار واعداد المكان المناسب لاقامة البيت والحجرات اللازمة للمستشفى ..

وبسرعة البرق انتشر خبر وصوله بين سكان الغابات والقرى القريبة والبعيدة .. كانوا يقولون وقد ملأ البشر والأمل قلوبهم : لقد عاد .. لقد وصل .. عاد الينا الطبيب العظيم مرة أخرى .. !

وحتى قبل بداية العمل فى اعادة بناء المستشفى .. فان الأفريقيين المرضى عادوا الى الظهور مرة أخرى .. يجيئون من كل فج وكل صوب .. ويتجمعون

امام بيته فى انتظار خروجه اليهم فى كل صباح ٠٠

وانهمك شفايتزر فى عمل شاق مرهق ٠٠ فقد كان عليه أن يعالج مرضاه فى فترة الصباح وحتى الظهر ٠٠ ثم يقوم بعد ذلك بالاشراف على بناء حجرات المستشفى الجديد ٠٠ وكان من الصعب العثور على عمال يصلحون للمساعدة فى أعمال البناء ٠٠ وحتى اذا تم العثور على بعض من هؤلاء العمال ، فانهم كانوا يعملون ببطء ٠٠ واذا غفل شفايتزر عن الاشراف عليهم دقائق معدودة ، فانهم كانوا يتركون العمل على الفور ويجلسون فى الظل يضحكون ويتجاذبون أطراف أحاديث لا تنتهى ٠٠

وبرر احد هؤلاء العمال ذلك بقوله :

ـ الغلطة غلطتك يا دكتور ٠٠ اذا كنت لاتستطيع أن تستمر فى مراقبتنا ٠٠ فنحن أيضا لن نستطيع أن نستمر فى العمل !!

ومرت السنوات تباعا ٠٠

وقام شفايتزر بالرحلة بين لامبارينى وفرنسا عدة مرات ·· وأصبح يقسم وقته بين افريقيا وأوربا··

وفى أوربا كان يرى أصدقاءه ·· وينشر كتبه ·· ويزور عدة أقطار أوربية ليلقى الأحاديث والمحاضرات عن تجربة المستشفى فى لامبارينى ·· ويعزف على الأرغن فى حفلات عامة ·· وكان يقوم بكل هذا النشاط ليجمع النقود اللازمة للوفاء باحتياجات المستشفى فى لامبارينى ··

وفى لامبارينى توسعت المستشفى وازدادت حجراتها وكثر عدد المرضى وعدد العاملين فيها ·· وتحسنت الاحوال أكثر وأكثر بعد اكتشاف عين للمياه العذبة النقية جوار المستشفى ·· ولذلك فقد قام شفايتزر بتطهير منطقة واسعة من أرض الغابة ، وأزال اعشابها ومهد أرضها وجعلها صالحة لزراعة مجموعات من الفواكه والخضراوات تكفى لاستهلاك المرضى الذين يعالجون فى المستشفى ، وللعمال الذين يعملون فيها ··

وفى عام ١٩٤٧ أصبح عدد الأسرة فى المستشفى ثلاثمائة وخمسين سريرا .. وأصبح يعمل فيها عدد كبير من الاطباء المتحمسين ، ومجموعة كبيرة من الممرضات الأوربيات ..

أما الدكتور شفايتزر فقد تخصص فى علاج مرض خطير اسمه « الجذام » .. وكان هناك عدد كبير من الافريقيين المصابين بهذا المرض .. الأمر الذى دعا شفايتزر أن يبنى لهم قرية خاصة قرب المستشفى ليعزل فيها هؤلاء المرضى بعيدا عن المرضى الآخرين غير المصابين بهذا المرض الخطير .. خصوصا وأن هذا المرض كان يستلزم العلاج الطويل والبقاء تحت الاشراف الطبى لفترة طويلة ..

١٧ ـ السنوات الأخيرة

وأصـــــبحت لامبارينى الآن مركزا طبيا حافلا بالنشاط ·· يقدم العلاج والخدمات الطبية لعدة آلاف من المرضى الذين يعيشون فى تلك المنطقة الحارة الرطبة من أفريقيا ··

أما الرجل العظيم الذى كان وراء هـذا العمل العظيم ·· ألبرت شفايتزر ·· فقد حصل على جائزة نوبل ·· كما كرمته العديد من الجامعات والحكومات ·· وحازت كتبه العديدة فى الموسيقى والعقيدة وفلســفة الحياة على شهرة واسعة فى عديد من انحاء العالم ··

كما اعتبر واحدا من اعظم عازفي الأرغن الذين عرفهم العـالم ٠

كان يتمتع بروح نبيلة تدفعه دفعا لتقديم خدماته لكل الضعفاء والمحتاجين ، ولتبث فيهم نور الامل بلا مقابل الا احساسه بالرضا حين يرى جهوده في خدمة الناس قد تكللت بالنجاح ٠٠

لقد بذل هذا الرجل العظيم جهودا جبارة عـلى مدى نحو أربعة وأربعين عاما ٠٠

وبالرغم من أنه قد قضى حياته في قارتي أوربا وأفريقيا ٠٠ وهما قارتان مختلفتان تماما ٠٠ الا أنهما كانا بالنسبة اليه أرضا واحـــدة ٠٠ فالانسان هــو الانسان في كل زمان وكل مكان ٠٠

وفي سنة ١٩٦٥ ٠٠ مات ألبرت شــــفايتزر في قرية لامبارينى ٠٠

وانتشر خبر موته بسرعة البرق فى جميع أنحاء العالم .. وعرف الناس آنئذ أن حياة رجل من أعظم الرجال فى هذا العصر قدانتهت .. !

الفهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٧٦٦/٩٧
I.S.B.N. 977-01-5264-1

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى خمسون قرشاً
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

■ رجال عظام ونساء عظيمات

المهـــاتما غـــاندي.. وفلورنس نايتنجيل.. وابراهام لينكولن.. ومدام كوري.. وألبرت شفايتزر..

هم مجموعة من أشهر الرجال العظام والنساء العظيمات الذين ظهروا فى العصر الحديث.. والذين وهبوا أنفسهم وحيواتهم كلها من أجل خير الإنسان وتقدمه. وكلهم كانوا من الناس البسطاء، ولكنهم استطاعوا بالجهد الصادق والمثابرة أن يصلوا إلى قـ ... ن البطولة والعظمة.